الجزء ٩ — المجلد ٩



(دمشق) آب : سنة ١٩٢٩ م الموافق صفر وربيع الاول سنة ١٣٤٨ هـ ١٠٥

عبد الحميد الكاتب (١)

منشؤه واصله

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري من عامر بن لؤي . ولؤي ينتهي اليه عدد قريش وشرفها ومن ولده عامر بن لؤي وولده حسل ومعيص . وقد قيل في نسبه انه عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب . ومعظم الروايات ترجح ان والده كان من الموالي . واذا صح ذلك كان من اصل غير عربي . اللهم الا اذا ثبتت سلسلة نسبه التي انتهت بابن عامر بن لؤي بن غالب . وفي رواية ان جده من سبي القادسية يتلون عامر بن لؤي . وان كان اصله من سبي القادسية فهو فارسي الاصل لا محالة . واذا قلنا بانه من اصل فارسي فيكون جده انضم الى عامر بن لؤي ، وقد ينضمّ الرجل الى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب اليهم . والاصطخري يقول ان عبد الحميد كان ممن يصلح من الفرس للدواوين من الكتاب والعمال والادباء . وكان له في بني أمية ولاء ينسب اليهم فنسبته الى عامر نسبة ولاء اذاً .

وانت تعلم ان المولى عند العرب دون الحر الصريح ، وفوق العبد الرقيق في المرتبة . والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العم يجب على صاحبه ان ينصره و يرثه اذا مات ولا وارث

---

(١) المحاضرة التي ألقاها الاستاذ السيد محمد كرد علي في ردهة المجمع العلمي العربي بتاريخ ١٤ كانون الاول سنة ١٩٢٨ م .

له ، ومنه حديث الزكاة « مولى القوم منهم » والمولى هو الصاحب والقريب والجار والحليف والجمع موالي • ويكون المولى مولى عتاقة ومولى تباعة ، فمولى العتاقة هو الذي يكون عبداً او اسيراً فيعتقه صاحبه فيصبح المعتق للمعتِق مولىً • ومولى التباعة هو من يصطنع او يحالف اي يستتبع • ومن الولاء ايضاً مولى الرحم من يتزوج في قبيل فينسب الى قبيلهم • ودية المولى نصف دية الحر وكذلك حكمه في العقوبات يناله منها نصف ما ينال الحر • اما في المواريث فمولى العتاقة يورث مولاه ولا يرث منه ، ومولى التباعة لا يرث ولا يورّث • وحكم مولى الرحم كحكم الاحرار يرث و يورّث •

وكان الموالي في الجاهلية من اجناس ونحل مختلفة ، فلما كان الاسلام أصبح غير المسلمين ذمة • وكانت في الجاهلية دية المولى وهو الحليف خمساً من الابل ودية الصريح عشراً • والصريح الخالص النسب • والولاء بفتح الواو القرابة ، و بالكسر ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في ملكه او بسبب عقد الموالاة • اذا عرفت هذا فليس أمامك مايمنع من ان تجعل عبدالحميد من اصل عربي وان كان جده مولى تباعة لامولى عتاقة كأن يكون قد تزوج من بني عامر وانضم اليهم بسبب • هذا على شريطة ضعف الرواية القائلة بان أجداده من سبي القادسية • وهناك تكون الفارسية أعلق ببيته من شعرات قصه •

وكان بنو أمية كثيراً ما يعتمدون على الموالي في كتابتهم ودواو ينهم ، فلم تمنعهم اصولهم من تولي أهم مناصب الدولة • فقد ذكر ابن جرير الطبري ان من كتاب معاوية مولاه عبد الرحمن بن درّاج • وكان على ديوان الرسائل لعبدالملك بن مروان ابوالزعيزعة مولاه ، وكتب للوليد على ديوان الخاتم شعيب العماني مولاه وعلى ديوان الرسائل جناح مولاه وعلى المستغلات نُفَيع بن ذؤيب مولاه • وكان يكتب لمسلمة سميع مولاه وعلى ديوان الرسائل الليث بن ابي رقية مولى الحكم بنت ابي سفيان وعلى ديوان الخاتم نُعيم ابن سلامة مولى لاهل اليمن من فلسطين • وكان يكتب لعمر بن عبد العزيز الليث بن ابي فروة مولى أم الحكم بنت ابي سفيان وكتب له اسماعيل بن ابي حكيم مولى الزبير • وكتب للوليد بن يزيد على ديوان الرسائل سالم مولى سعيد بن عبد الملك وكان عمرو ابن الحارث مولى بني جُمَح يتولى ليزيد بن الوليد الناقص ديوان الخاتم — وكان من الموالي على ديوان الرسائل لمروان بن محمد عثمان بن قيس مولى خالد القسري •

أدبه وتأديبه

لا جرم ان ما اتصل بنا من اخبار عبد الحميد لم تصور لنا منه صورة صحيحة تامة ، فما عرفنا مولده ولا البلد الذي ولد فيه من بلاد الشام ، ولا نوع دراسته وأساتذته . ولكننا عرفنا انه شامي عاصر بعض الخلفاء من الأمويين ممن أقاموا العدل ، ودوّخوا البلاد وعمروها بالاحسان ، وكانوا أمة وحدهم في الخير وفي دمهم انتقلت سياسة الملك وحكم الرعية . مثل سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك . و يقول ابن خلكان ان عبد الحميد كان من اهل الأنبار وسكن الرقة فان صحت روايته كان عراقياً غير شامي . وأطلق عليه ابن عبد ربه اسم عبد الحميد الاكبر وعده ممن نبل بالكتابة وكان قبل خاملاً وقال انه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية حتى انقضت دولتهم . وفي هذا القول نظر لان عبد الملك تولى سنة خمس وستين وتوفي سنة ست وثمانين فلا تكون سن عبد الحميد يوم مقتله اقلّ من سبعين او خمس وسبعين وهذا يناقض ماسبير بك من انه غمز عليه سنة ١٣٢ وهو عند ابن المقفع ولم يعرف الموكلون بالقبض عليه ايهما عبد الحميد ، وابن المقفع اذ ذاك كان دون الثلاثين من العمر فلا يعقل الا ان يكون صاحب الشرطة العباسي عارفاً على الأقل بان صاحبه شيخ هرم . ونميل الى ان عبد الحميد كتب اولاً لهشام بن عبد الملك الذي ولي سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥ ثم لمروان .

والارجح ان عبد الحميد تخرج بالكتابة بسالم مولى هشام وكاتبه وكان سالم ختنه أي صهره زوج اخته ، وكان سالم احد الفصحاء البلغاء ، وقد نقل رسائل ارسطاليس الى الاسكندر ونُقل له وأصلح هو ، ولسالم رسائل مجموعة في نحو مائة ورقة . و بهذا يقال ان عبد الحميد اخذ عن رجل بليغ يعرف الاستخراج من ادب اليونان وسياستهم . ولم يثبت انه كان يعرف اليونانية كما وهم بعض أساتذة العصر ، وربما شدا شيئاً من الارمنية مدة مقامه في ارمينية كاتباً لمروان . والارمنية قلما نفعته في تكوين ملكته . وارمينية كانت في الخطاط ، بيد انها لم تأت في باب المدنيات ، ولا في عصر من عصورها بشيء يقرب من المدنية الفارسية .

كتب عبد الحميد قليلاً عن هشام بن عبد الملك كما عرف من رسالة كتبها عن هشام الى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن ، وقد كان على اليمن منذ سنة ١٠٧ اي ان ديوان هشام كان المدرسة الاولى التي تخرج باساتذتها عبد الحميد في علوم الانشاء . الا اذا صح انه كتب من قبل لعبد الملك بن مروان وهو بعيد . ويمكن ان يقال من ثم انه كان من اول نشأته على اتصال مع من يعرف الخلفاء ، وما يقتضي لخدمة الحكومات من الأدوات . وذكروا انه حدث عن سالم بن هشام ولعله سالم مولى هشام وحدّث عنه خالد بن برمك .

وقالو ان عبد الحميد كان في حداثته معلماً في الكوفة ، ولعله مرن على حفظ مسائل كثيرة من تأديبه الاطفال زمناً . والمؤدبون كانوا طبقة راقية في القرون الاولى للاسلام ، لان المرء لا يضع في الرجل ثقته ويلقي اليه بمقاليد ابنه الا اذا آنس منه كفاءة وحسن اخلاق . وكانت الكوفة لما القى بها عصا الترحال لاول امره محط رحال رجال العلم في الدين واللغة والنحو والصرف ، ولاشك انه ثافن اهل البلاغة فيها وأخذ عنهم ، وهناك حدث له غرام بتمثل كلام علي ابن ابي طالب ، فقد سئل ما الذي خرجك في البلاغة فقال : حفظ كلام الاصلع يعني علي ابن ابي طالب . وكانت الكوفة من البلدان التي احبها امير المؤمنين واحب اهلها واحبوه .

وفي زمن لم نتثبته كثيراً اتصل بمروان بن محمد وهو وال على ارمينية يحارب الخارج فيها على الخلافة ، فكتب عنه وحظي عنده ، وانقطع اليه ، ولما عقدت البيعة لمروان في الشام سجد مروان واصحابه شكراً لله . الا عبد الحميد فقال له مروان : لم لا سجدت . فقال : ولِمَ اسجد على ان كنت معنا فطرت عنا يعني بالخلافة . فقال : اذاً تطير معي فقال : الآن طاب السجود وسجد . وكان كاتب مروان طول خلافته .

ترى هل يكون الاختلاف في نسب عبدالحميد سبباً يدعونا الى ان نرجح ان اجداده كانوا من سبي القادسية . والاحجى ان يقال سواء صحت هذه النسبة ام لم تصح ، بانه تأثر لا محالة بعادات الفرس وعرف اساليبهم في الكتاب والخطاب . يؤيد ذلك مارواه ابو هلال العسكري قال : « فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة اخرى امكنه فيها من صنعة الكلام ما امكنه في الاولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج امثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوّلها الى اللسان العربي » . وعلى كل فإن

المجال الذي جال فيه عقل عبد الحميد كان فسيحاً بالنسبة لعصره واهل طبقته ، وكان من اتصل بهم قبل ان يلي الكتابة عن الخليفة جماعة من المنظور اليهم في الامة . ولهذا ولغيره اي لمولده في الشام وتنقله في البلاد دخل كبير في اتساع عقله وتجاربه .

* * *

أخلاقه وعاقبة امره

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بعد من أعاظم رجال الأمويين شهامة وحزماً وادباً ، وكان يحب عبد الحميد حباً جماً ، ويرفع منزلتـه بين الكتاب والعمال « ولا يرى الدنيا الا به » لعلمه بنبوغه وتفرده في صناعته ، وذهابه بفضل البلاغة وما ينبغي لها ، حتى عرض عليه لما أيقن ان امره أدبر ، وهزائمه تواترت ، وسلطانه صائر الى الزوال ، ان يكون مع اعدائه لتسلم حياته ، قائلاً انا نجد في الكتب ان هذا الامر زائل عنـا لا محالة ، وسيضطر اليك هؤلاء القوم يعني ولد العباس لأدبك ، وان إعجابهم بك يدعوهم الى حسن الظن بك ، فاستأمن اليهم ، واظهر الغـدر بي ، فلعلك تنفعني في حياتي او بعد مماتي . فقال له : وكيف لي بان يعلم الناس جميعاً ان هذا عن رأيك ، وكلهم يقول اني غدرت بك وصرت الى عدوك . وأنشد :

وذنبي ظاهر لا شك فيه لمبصره وعذري بالمغيب

وأنشد ايضاً :

اسر وفاء ثم أظهر غدرةً فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال يا امير المؤمنين : ان الذي امرتني به أنفع الامرين اليـك ، وأقبحهما بي ، ولكني اصبر حتى يفتح الله عليك او أقتل معك . وهكذا تجلت في عبد الحميد فضيلة الوفاء العربي ، فآثر ان يقتل مع صاحبه على ان يتخلى عنه يوم الكريهة والشدة . وتجلت فيه خلة الشجاعة والاعتقاد بالأقدار فهو الرجل الذي شارك سيده في سعادته وبلائه .

وربما كان عبد الحميد ينجو من الهلاك بايدي العباسيين لو سار بسيرة غيره من رجال مروان ، ان صح ما روي من انه لما زال امر مروان اتى المنصور بخواص مروان ، وفيهم عبد الحميد والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي فهمّ بقتلهم جميعاً فقال سلام : استبقني

يا امير المؤمنين فاني احسن الحداء . قال : وما بلغ من حدائك . قال : تعمد الى إبل فتظمئها ثلاثة ايام ثم توردها الماء ، فاذا بدأت تشرب رفعت صوتي بالحداء ، فترفع رؤوسها وتدع الشرب ، ثم لا تشرب حتى أسكت . فأمر المنصور بابل ففعل بها ذلك فكان الأمر كما قال ، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه . وقال له البعلبكي : استبقني يا امير المؤمنين فاني مؤذن منقطع القرين قال : وما بلغ من أذانك . قال : تأمر جارية فتقدم اليك طستاً ، وتأخذ بيدها ابريقاً ، وتصب الماء على يدك . فأبتدئ بالأذان فتدهش ويذهب عقلها اذا سمعت أذاني ، حتى تلقي الابريق من يدها وهي لا تعلم ، فامر المنصور جارية ففعلت ذلك واخذ البعلبكي الأذان فكانت حالها كما وصف . وقال عبد الحميد : ياامير المؤمنين فاني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة . فقال : ماعرفني بك ، انت الذي فعلت بنا الأفاعيل ، وعملت لنا الدواهي . وامر به فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه . و يروى انه سلمه الى عبد الجبار فكان يحمي له طستاً ويضعه على بطنه حتى قتله .

واختلفوا في مقتل عبد الحميد فاليعقوبي يقول انه تخلف بمصر واستتر حتى دُلَّ عليه صالح بن علي . وزاد غيره انه لما انهزم اختبأ في كنيسة في بوصير من ارض مصر وقال آخرون : انه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمز عليه وكان صديقه وفاجأهما الطلب وهما في بيت فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد فقال كل واحد منهما انا خوفاً على صاحبه . واوشك الجند ان يقتلوا ابن المقفع ، لولا ان صاح بهم عبد الحميد قائلاً ترفقوا بنا ، فان لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر الى من وجّهكم فيذكر له تلك العلامات ففعلوا وأخذوا عبد الحميد .

وفي رواية ان عبد الحميد لم يختبئ في الجزيرة عند ابن المقفع بل قبض ساعة قتل مولاه مروان ، وان عامر بن اسماعيل المسلي لما قتل مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه فعرض عليه رؤوس القتلى ، لانه قتل في ستة او سبعة من خواصه ، وكانوا معه فعرّفه رأسه وحمل عبد الحميد الى ابي العباس ، فسلمه الى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله . وهنا ايضاً اضطراب في رأي من ترجموا لعبد الحميد في نهاية امره ، كما وقع الاختلاف في أصله ، ولم يعقل انه تخلف عن سيده في الجزيرة والارجح انه قتل في مصر .

***

بلاغته وأسلوبه

كان عبد الحميد على ما قال صاحب العقد الفريد اول من فتق اكمام البلاغة، وسهل طرقها، وفك رقاب الشعر. ضربت الأمثال ببلاغته وقد أشار البحتري الى ذلك في قصيدته الى محمد بن عبد الملك قال :

وتفننت في البلاغة حتى عطل الناس فن عبدالحميد

وقال ابن الرومي لابي الصقر :

لو ان عبدالحميد اليوم شاهده لكان بين يديه مذعناً وسنا

وقال ابن اسفنديار الكاتب :

وهو في الحذق والبلاغة في التـ ـطفيل عبد الحميد في الكتاب

وقال ابو اسحق الصابي :

أنسيتم كتباً شحنت فصولها بفصول درّ عندكم منضود
ورسائلاً نفذت الى اطرافكم عبد الحميد بهن غير حميد

وقال ابراهيم بن عباس الصُّولي وقد ذكر عبد الحميد عنده : كان والله الكلام معاناً له، ماتمنيت كلام احد من الكتاب قط ان يكون لي مثل كلامه . جاء عبدالحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية، شرعها لكل من يحمل القلم بعده، فنقل الانشاء من طور الى طور لم يكد يتغير حتى عهد ابن العميد، ولذلك يحق ماقالوا افتتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

وتعلمون انه قلما عهد التطويل في الرسائل على عهد الراشدين والأُمويين، فكانت تأتي رسائلهم على الأغلب في السطر والسطرين والثلاثة . وفي رسائل عمر بن عبدالعزيز أواخر المئة الاولى نموذج ظاهر من هذا الأسلوب العجيب، واذا طالت الرسالة كما هو الحال في الرسالة المنسوبة لعلي بن ابي طالب الى الأشتر النخعي فانها تكون بمثابة قانون يضعه الخليفة للادارة والسياسة والقضاء اي تحتوي على أغراض شتى لاتتسع لها السطور القليلة . فجاء عبدالحميد وابتدع أسلوبه الجديد الخاص به، وكان ذلك عقبى تشعب أغراض الخلافة، وامتداد عمرانها، وانبساط ظل سلطانها، فعبد الحميد نهج للكتاب

سبل الانشاء ، واعلى في العالمين ذكرهم وشرّف صناعتهم ، وكانت قبله في الغالب لا تعد عملاً شريفاً من أعمال الدولة ويتولاها على الأغلب الموالي ومن اليهم . فوقر هـذا الفن الصعب في النفوس حتى كانت جودة الانشاء تنقل صاحبه من دواوينه الى ارقى دواوين الملك ، فكان لا يلي الوزارة غالباً الا من يعد في الذروة من طبقة الكتاب .

كان عبد الحميد اول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب فتابعه الناس على طريقته . والتحميد حمدك الله عز وجل مرة بعد مرة ، وكثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة وهو أبلغ من الحمد . وربما سبق عبدالله ابن المقفع الى التحميدات ولكنها لم تشتهر كما اشتهرت من ديوان عبد الحميد ، وهو ديوان الخلافة يتناقل الناسَ عنه اكثر مما يتناقلون عن غيره .

ولم يكن عبد الحميد يطيل كل مرة في رسائله ، بل يطيل مرة ويوجز مرات ، لكنه الى التطويل اميل . فصاحب هذا الانتقال في الكتابة حافظ على ايجازها ماامكن ، لكن الزمان اقتضاه احياناً الاسهاب فأسهب وأجاد في الطريقتين ، خصوصاً اذا كانت الحـال تقتضي ذلك ، مثل كتابه الى ابي مسلم الخراساني الذي كتبه على لسان محمد بن مروان لما ظهر ابو مسلم بدعوة بني العباس ، فكتب كتاباً يستميله ويضمنـه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين اصحاب ابي مسلم ، وكان من كبر حجمه يحمل على جمل ، ثم قال لمروان : قد كتبت كتـاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك والا فالهلاك . فلما ورد الكتاب على ابي مسلم لم يقرأه ، وامر بنار فأحرقه ، وكتب على جزازة منـه الى مروان :

محا السيف اسطارَ البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب
فان يقدموا نُعمل سيوفاً شحيذةً يهون عليهـا العتب من كل عاتب

وقالوا ان من جملة فقرات هذا الكتاب « اذا أراد الله اهلاك نملة انبت لها جناحين » ومعنى قول الراوين ان كتابه من كبر حجمه حمل على جمل انه كان مكتوباً على رقّ . وفي الرقوق تكتب الاسطر القليلة على الأغلب . وربما دعت كثرة الرقوق التي تضمنت هذا الكتاب ان لا ينهض رجل بحملها بل حملت لثقلها على جمل . وليس في هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب لان البلاغة تقضي بذلك . فقد قال ابن

قتيبة : وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب ، او حمالة بدم ، او صلح بين عشائر ، ان يقلل الكلام و يختصره ، ولا لمن كتب الى عامة كتاباً في فتح او استصلاح ان يوجز . ولو كتب كاتب الى اهل بلد في الدعاء الى الطاعة ، والتحذير عن المعصية ، كتاب يزيد بن الوليد الى مروان حين بلغه عنه تلكؤه في بيعته (اما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على ايهما شئت والسلام) لم يعمل هذا الكلام في انفسهم عمله في نفس مروان . ولكن الصواب ان يطيل و يكرر ، و يعيد و يبدي ، و يحذر و ينذر اه . وهكذا جرى عبد الحميد في رسالة ابي مسلم الخراساني ، فأطال وحمدت اطالته ، كما أطال في نصيحته الى عبد الله ولي عهد مروان فقد كتب كتابه هذا في نحو ثلاثين صفحة من الصفحات المتوسطة فوضع ببيانه الرائع خططاً حربية وطرقاً جديدة في النظام والادارة والسياسة ، وقواعد مهمة في التربية ولا سيما في تربية الملوك والعظماء ، وأصولاً كلية في علم النفس والعادات المستحبة ومعاملة المرؤوسين وطلاب الحاجات وارباب السعايات واصحاب الاخبار .

نموذجات من مختصر رسائله

واذا جئنا نتعرف عبدالحميد في مطالبه وحاجاته ، وشفقته على نفسه وولده ورحمه ، فلدينا مما ابقت الايام عليه من رسائله نموذجات يتجلى لنا فيها روحه ، منها ما كتبه الى مروان في حاجة : « ان الله بنعمته علي بما رزقني المنزلة من اميرالمؤمنين جعل معها شكرها مقروناً بها ، فهي تنمي بالزيادة ، والشكر مصاحب لها ، فليست تدخلني وحشة من ابناء حاجتي ، وانا اعلم انه لو وصل الى امير المؤمنين علم حالي اغناني عن استزادته ، ولكني تكنفتني مؤن استنفضت ما في يدي ، وكنت للخلف من الله منتظراً ، فاني انما اتقلب في نعمه ، وأتمرغ في فوائده ، وأعتصم بسالف معروفه كان عندي » .

ومنها ما أنشأه الى اخ له في مولود ولد له وهو اول مولود كان : « اما بعد فان مما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بميزتها ، واصطفيت بخصيصتها ، كانت أسر لي من هبة الله لي ولداً أسميته فلاناً ، واملت ببقائه بعدي حياة وذكرى ، وحسن خلافة في حرمي ، واشراكه اياي في دعائه ، شافعاً لي الى ربه ، عند خلوته في صلاته وحجه ، وكل موطن من

مواطن طاعته ، فاذا نظرت الى شخصه تحرك به وجدي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أنسة الولد ، وتولت عني به وحشة الوحدة ، فانا به جذل في مغيبي ومشهدي ، أحاول مس جسده بيدي في الظُّلَم ، وتارةً أعانقه وأرشفه ، ليس يعدله عندي عظيمات الفوائد ولا منفسات الرغائب . سرني به واهبه لي على حين حاجتي ، فشدبه أزري ، وحملني من شكره فيه ماقد آدني بثقل حمل النعم السالفة الي به ، المقرونة بما راؤها في العجب بمارأت مايدركني به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا اياه ، ووجلاً من عواصف الايام عليه . فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام ، تأديبه بالزكاة وحرسه بالعافية ، ان يرزقنا شكر ماحملنا فيه وفي غيره ، وان يجعل مايهب لنا من سلامته ، والمدة في عمره ، موصولاً بالزيادة ، مقروناً بالعافية ، محوطاً من المكروه ، فانه المنان بالمواهب ، والواهب للنى ، لاشريك له . حملني على الكتاب اليك اعلم ماسررت به علمي بحالك فيه ، وشركتك اياي في كل نعمة أسداها الي ولي النعم ، واهل الشكر اولى بالمزيد من الله جل ذكره والسلام عليك » .

ومنها ماانفذه الى اهله وهو منهزم مع مروان من فلسطين وهو آخر حرب وموافعة كانت له . وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء يعزيهم عن نفسه « اما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، وجعل فيها اقساماً مختلفة بين اهلها ، فمن درت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها ، سكن اليها ورضي بهـا وأقام عليها ، ومن قرصته باظفارها وعضته بانيابها ، قلاها نافراً عنها ، وذمها ساخطاً عليهـا ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا[1] موليـة ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الاوطان ، وفرقتنا عن الاخوان ، فالدار نازحة والطير بارحة . وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعداً ، واليكم صبابة ووجداً ، فان تتم البلية الى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وان يلحقنا ظُفُر جارح من أظفـار من يليكم نرجع اليكم بذل الإسار ، والذل شر جار ، نسأل الله الذي يعز من يشاء ، و يذل من يشاء ، ان يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الأديان والأبدان ، فانه رب العالمين وارحم الراحمين » .

---

(١) رفستنا

وفي رواية انه ختم هذه الرسالة هكذا : « فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة ، قد اخذت كل ماعطت ، وتباعدت مثل ماتقربت ، واعقبت بالراحة نصبا ، وبالجذل هما ، وبالامن خوفاً ، وبالعز ذلاً ، وبالجدة حاجة ، وبالسراء ضراء ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بناسبيل من لاأوبة له ، منفيين عن الاولياء ، مقطوعين عن الاحباء ».

ومن رسائله المختصرة ما كتبه عن مروان الى هشام يعزيه بامرأة من حظاياه . « ان الله تعالى امتع امير المؤمنين من انيسته وقرينته ، متاعاً مده الى اجل مسمى ، فلما تمت له مواهب الله وعاريته ، قبض الله العارية ، ثم اعطى الله امير المؤمنين من الشكر عند بقائها . والصبر عند ذهابها ، انفس منها في المنقلب ، وارجح في الميزان ، واسني في العوض ، فالحمد لله وانا اليه راجعون » .

وكتب موصياً بشخص وهي من مختصراته « حق موصل كتابي اليك كحقه عليّ ، اذ جعلك موضعاً لامله ، ورآني اهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق امله » :

وكتب عن هشام بن عبد الملك الى يوسف بن عمر وهو باليمن في السلامة « اما بعد فان امير المؤمنين كتب اليك وهو في نعمة الله عليه ، وبلائه عنده في ولده واهل لحمته والخاص من اموره والعام والجنود ، والقواصي والثغور ، والدهماء من المسلمين . على مالم يزل ولي النعم يتولاه من امير المؤمنين ، حافظاً له فيه ، ومكرماً له بالحياطة لما الهمه الله فيه من امر رعيته ، وعلى اعظم واكمل ما كان يحوطه فيه ، ويذب له عنه . والله محمود مشكور اليه فيه مرغوب . أحب امير المؤمنين لعلمه بسرورك به ، ان يكتب اليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به . فان الشكر من الله باحسن المواضع وأعظم المنازل ، فازدد منه تزدد به ، وحافظ عليه تحفظ به ، وارغب فيه يهد اليك مزيد الخير ونفائس المواهب وبقاء النعم . فاقرأ على من قبلك كتاب امير المؤمنين اليك ، ليسر به جندك ورعيتك ، ومن حمله الله النعم بامير المؤمنين ليحمدوا ربهم على مارزق الله عباده من سلامة امير المؤمنين في بدنه ، ورأفته بهم ، واعتنائه بامورهم ، فانزيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام» .

ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب ، حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد قائمين بالدولة العباسية . « فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية ، من يد الفئة العجمية ، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة ، ونصحو من هذه السكرة ، فسينضب السيل ،

وتمحى آية الليل ، والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين » .

ومن رسائله المفردات رسالته في الشطرنج والتنفير من اللعب به : « اما بعد فان الله شرع دينه بانهاج سبله ، وايضاح معالمه باظهار فرائضه ، وبعث رسله الى خلقه ، دلالة لهم على ربوبيته . واحتجاجاً عليهم برسالاته ، وتقدماً اليهم بانذاره ووعيده ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة ، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وحيه ، وقفى به رسله ، وابتعثه لاحياء دينه الدارس مرتضياً له ، على حين انطمست له الاعلام مختفية ، وتشتتت السبل متفرقة ، وعفت آثار الدين دارسة ، وسطع رهج[1] الفتن ، واعتلى قتام[2] الظلم ، واستنهد[3] الشرك ، واسدف[4] الكفر ، وظهر اولياء الشيطان لطموس الاعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق ، واستطرف الجور واستنكح[5] الصدوف عن الحق ، واقمطر[6] تلهب الفتنة ، واستضرم لقاحها ، وطبقت الارض ظلمة كفر ، وغيابة فساد ، فصدع بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوماً ، ونصح الاسلام واهله دالاً لهم على المراشد ، وقائداً لهم الى الهداية ، ومنيراً لهم اعلام الحق ضاحية[7] ، مرشداً لهم الى استفتاح باب الرحمة ، واعلان عروة النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية زاجراً لهم عن طريق الضلالة محذراً لهم الهلكة موعزاً اليهم في التقدمة ضارباً لهم على الحدود على ما يتقون من الامور ويخشون وما اليه يسارعون ويطلبون صابراً نفسه على الاذى والتكذيب داعياً لهم بالترغيب والترهيب حريصاً عليهم متحنناً على كافتهم عزيزاً عليه عنتهم[8] رؤفاً رحيماً تقدمه شفقته عليهم وعنايته برشدهم الى تجريد الطلب الى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم وسلامة اديانهم وتخفيف اواصر الاوزار عنهم حتى قبضه الله اليه صلى الله عليه ناصحاً متنصحاً اميناً مأموناً قد بلّغ الرسالة وادى النصيحة وقام بالحق وعدل عمود الدين حتى اعتدل مَيَله وذل الشرك واهله وأنجز الله له وعده واراه صدق اصابه في اكماله للمسلمين دينه واستقامة سننه فيهم وظهور

(١) الرهج الشغب او الغبار . (٢) القتام كسحاب الغبار . (٣) استنهد طلب ان ينهض . (٤) اسدف الليل اظلم . (٥) استنكح غلب . (٦) اقمطر اشتد . (٧) ضاحية علانية . (٨) يقال وقع فلان في العنت اي فيما شق عليه .

شرائعه عليهم قد ابان لهم موبقات الاعمال ومفظعات الذنوب ومهبطات الأوزار وظلم الشبهات وما يدعو اليه نقصان الاديان وتستهويهم به الغوايات واوضح لهم اعلام الحق ومنازل المراشد وطرق الهدى وابواب النجاة ومسالك العصمة غير مدخر لهم نصحاً ولا مبتغ في ارشادهم غنماً .

فكان مما قدم اليهم فيه نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذرهم امره ، وأوعز اليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها لما في ذلك من عظيم الاثم ، وموبق الوزر ، مع مشغلتها عن طلب المعاش ، وأضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين .

« وقد بلغ امير المؤمنين ان أُناساً ممن قبلك من اهل الاسلام ، قد الهجهم الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، والف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها ، من لدن مصبحهم الى مُمساهم ، ملهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، وافترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وان ذلك من فعلهم ظاهر في الاندية والمجالس ، غير منكر ولا معيب ، ولا مستفظع عند اهل الفقه ، وذوي الورع والأديان والاسنان منهم ، فاكبر امير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره ، وعلم ان الشيطان عندما يئس من بلوغ ارادته في معاصي الله عزّ وجل بمقر المسلمين وبمجمعهم صُراحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرهم بمكيدة حيله ، ارادة لاستهوائهم بالخدع ، واجتيالهم[1] بالشبه والمراشد الخفية المشكلة ، وكل مقيم على معصية الله صغرت او كبرت مستحلاً لها ، مشيداً بها ، مظهراً لارتكابه اياها ، غير حذر من عقاب الله عزّ وجل عليها ، ولا خائف مكروهاً فيها ، ولا رعيب من حلول سطوته عليها ، حتى تلحقه المنية فتختلجه[2] وهو مصر عليها غير تائب الى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه اياها . فكم قد أقام على موبقات الآثام ، وكبائر الذنوب ، حتى مد به مخرم[3] ايامه .

(١) اجتالتهم الشياطين صرفتهم عن هداهم الى ضلالتها وفي الحديث خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين . (٢) تنتزعه . (٣) المخرم كمجلس المنقطع .

« وقد أوجب امير المؤمنين ان يتقدم اليهم فيما بلغه عنهم ، وان ينذرهم ويوعز اليهم ويعلمهم ما في أعناقهم عليها وما لهم في قبول ذلك من الحظ وعليهم في تركه من الوزر فآذن[1] بذلك فيهم وانشده في اسواقهم وجميع انديتهم واوعز اليهم فيه وتقدم الى عامل شرطتك في انهاك العقوبة لمن رفع اليه من اهل الاعتكاف عليها والاظهار للعب بها واطالة حبسه في ضيق وضنك وطرح اسمه من ديوان امير المؤمنين وافطمهم عما نهجوا به من ذلك والتمس بشدتك عليهم فيه وانها كك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه واتباع امير المؤمنين ورأيه ولا يجدن احد عندك هوادة[2] في التقصير في حق الله عز وجل والتعدي لاحكامه فتحل بنفسك ما تسوءك عاقبته والتعرّض به لغيرة الله عزّ وجل ونكاله واكتب الى امير المؤمنين ما يكون منك ان شاء الله والسلام » .

ولقد أدركتم رعاكم الله ان عبدالحميد في رسالته هذه أشبه الوعاظ والفقهاء بلهجته هنا فقد رأيناه يكسو كلامه حلة من حلل الزهد ، ويدخل مدخلاً دينياً اورد فيه البراهين على قضيته ، لينزع من النفوس حب التلهي بلعب يقطع صاحبه عن العمل ، وذكر لهم ان اللاعبين بالشطرنج يذكرون خلال لعبهم الفاظاً لا تليق بالالسن ان تلوكها ولا بالاسماع ان تنصت اليها ، وعرفنا من رسالته بعد هذا ان أناساً من المنظور اليهم من الفقهاء وغيرهم من الأئمة كانوا مولعين بهذا اللعب منذ اوائل القرن الثاني . جاءهم من العجم كما جاءهم العود وغيره من أدوات الطرب والتلهي .

ومن رسالة له في وصف الصيد كتب بها الى مروان فيما يظهر[3] :

« ... خرجنا الى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضواري ، اكرمها اجناساً ، واعظمها اجساماً ، واحسنها الواناً ، واحدّها اطرافاً ، واطولها اعضاءً ، قد ثقفت بحسن الادب ، وعودت شدة الطلب ، وسبرت اعلام المواقف ، وخبرت المجاثم ، مجبولة على ما عوّدت ، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة ، من

(١) آذن أعلم . (٢) هوادة لين ورفق . (٣) من كتاب اختيار المنظوم والمنثور استشهد بها الاستاذ محمد بهجة الاثري في كتابه المجمل في تاريخ الادب العربي .

الشَّهرية[1] الموصوفة بالنجابة ، والجري والصلابة . فلم نزل باخفض سير واثقف طلب ، وقد امطرتنا السماء مطراً متداركاً قرّبت الارض منه ، وزهر البقل ، وسكن القتام من مثار السنابك ، ومتشعبات الاعاصير ، مهلة انصرنا غلوات ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت (من) السحاب مسفرة ، فتلألأت الأشجار ، وضحك النوار ، وانجلت الابصار ، فلم نر منظراً أحسن حسناً ، ولا مرموقاً اشبه شكلاً ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض . والخيل تمرح بنا نشاطا وتجذبنا اعنتها انبساطا ثم لم نلبث ان علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر وتخفي سبيل السلام تغشانا تارة وتنكشف أخرى ونحن بارض دمثة التراب أشبة[2] الأطراف مغدقة الفجاج مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب فأدانا المسير الى غابة دونها مألف الصيد ومجتمع الوحش ونهاية الطلب قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممنون وبكل حرة[3] جونة متفرقون فرجع بنا العود على البدء وقد انجلت الضبابة وامتد النظر فاذا نحن برعلة من ظباء وخلفة آرام يرتعن آنسات فداخلتهن الضبابة عن شخصنا واذهلهن انيق الرياض عن استماع حسنا فلم نعج الا والضواري لاتحتلهن من بعد الغابة ومنتهى نظر الشاخص ثم مدت الجوارح اجنحتها واجتذبت الضواري مقاودها فامرت بارسالها على الثقة بحضرها وسرعة الجوارح في طلبها فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها تسف الارض سفاً[4] كاشفة عن آثارها طالبة لخيارها جارشة[5] باظفارها قد مزقتها تمزيق الريح الجراد فمن صائح بها وناعر وهاتف بها وناعق يدعو الكلب باسمه ويفديه بابيه وامه وراكض تحت مغره وخافق يطلبه الرمح وطامح يمنعه وسانح قد عارضه بارح قد حيرتنا الكثرة واعجزتنا القدرة حتى امتلأت ايدينا من صنوف الصيد والله المنعم الوهاب .

ثم ملنا — يا أمير المؤمنين — بهداية دليل قد احكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب[6] الى غدير افيح ، وروضة خضرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ملتفة بصنوف الخمر[7]

(١) بكسر الشين ضرب من البراذين . (٢) أشبة ملتفة . (٣) ارض ذات حجارة سوداء . (٤) السفيف المرور على وجه الارض . (٥) صائدة . (٦) مسائل الماء . (٧) الخمر الشجر المتكاثف والمستأجمة كثيرة الشجر الملتف .

مملوءة من انواع الطير لم يذعرهن صائد ولا اقتنصهن قانص نخفق لها بالطبول وصفر بنفير الحنف فثار منها ماملأ الأفق كثرتها وراعت الجوارح خفقات اجنحتها ثم انبرت البزاة لها صائدة والصقور كاسرة والشواهين ضارية يرفعن الطالب لها ويخفضن الظفر بها حتى سئمنا من الذبح وامتلأنا من النضح[1] كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها وسرية نصرت على عدوها والحقت ضعيفها بقويها وغلبت محسنها مسيئها لانملك انفسنا مرحاً ولا نستفيق من الجذل بها فرحا بقية يومنا والله المنعم الوهاب .

ثم غدونا — ياأميرالمؤمنين — الى ارض وُصف لنا صيدها بالكثرة ورياضها بالنزهة فزل واصفها عن الطريقة واعتمد بنا على غير الحقيقة فأتيناها فلم نر صيداً ولا عشبا ولا نزهة ولا حسنا فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعورا وجدوباً وقفرا حتى قصر بنا اليأس عن الطلب وقطع بنا عن الطمع النصب . فبينا نحن كذلك اذ بدا لنا جأب[2] قد أوفى بنا على حائل دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة فأمماها فلما تطرقنا مشياً وتقريباً الى عاناته[3] توالى نهيقه وكثر شهيقه فالتفتن اليه فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه واستهولن امره حتى اذا كنا برأي ومسمع انجذبن موليات وهربن مسيئات فأجهدنا الركض في طلبهن نتبع آثارهن ونستشف بلاء بين احفار ودكادك[4] وأخاديد حتى اشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل بجنبتيه غابة أشبة قد سبقن اليها واستخفين فيها فنظمناها بالخيل نظم الخرز . ثم اوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة احوالها والطبول خافقة والاصوات شاهقة فكان وكان والحمد لله على كل حال اﻫ .

ومن رسالة له في الفتنة[5] : « في طاعة الامة في الاسلام ومناصحتهم على امورهم والتسليم لما أمروا به فيهم كل نعمة فاضلة وكرامة باقية وعافية مجللة وسلامة ظاهرة

---

(١) النّضح البلل . (٢) حمار وحشي . (٣) العانة الاتان والقطيع من حمر الوحش .

(٤) جمع دكدك وهي الارض فيها غلظ . والاخاديد جمع أخدود وهو حفرة مستطيلة في الأرض . (٥) مقتبسة من الجزء الرابع من كتاب التذكرة الحمدونية المخطوطة المحفوظة في دار الكتب العامة في الاستانة .

و باطنة وقوة باذن الله مانعة وفي الخلاف لهم والمعصية عليهم ذهاب كل نعمة وتفرق كل كرامة ومحق كل قنية وهلاك كل سلامة وألفة وموت كل عز وقوة والدعاء بكل بلية ومقارفة كل ضلالة واتباع كل جهالة وإحياء كل بدعة وإماتة كل سنة واجلاب كل ضرر على الامة وإدبار كل منفعة والعمل بكل جور و باطل وفناء كل حق . وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي بيديه سيف اخيه الذي كان يعتمد عليه و يوهن عضده و يهدم حصنه و يفل عدده و يهلك ثروته و يعطب من يدعوه و يفزع اليه و يكثر بمكانه و يحرسه من غفلته من الاعداء اذا غفل ويكون عيثاله من خلفه فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يهراق بغير حقه وطفل من ابناء المسلمين قد يتم من ابيه ومذلة قد دخلت عليه ونعمة قد زالت عنه ووحشة قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبت وشحناء قد ظهرت وأوتار قد بقيت وعداوة في الانفس قد استقرت وخوف قد ظهر وسبل قد قطعت وامرأة قد أرملت وصبية قد يتمت . وبلاد عامرة قد خربت وعدد قد نقص وبلايا قد عمت وشملت وعدو قد شمت ومنافق قد رفع الى ما كان يؤمل رأسه وعدو من المشركين قد طمع وقوي بعد ضعف وعزَّ بعد مذلة ورعية قد صاحت وناعية قد ولولت وحميم قد قتل حميمه ومودة قد صارت عداوة واجتماع من الاهواء قد عاد الى فرقة وارحام قد انقطعت .

« فانظروا يا معاشر المسلمين ماذا تفعل الفتنة والمعصية و كيف يدب الشيطان لها و يسعى فيها و يحتال بخديعته ومكره ولطف مسالكه حتى يلهبها و يشعلها و يرفعها من قلتها الى الكثرة ومن صغرها الى كبرها فانه انما يبدو الظفر على الولاة ثم يترامى الى الشكاة والسخطة والغضب وزين لهم القتال فيبلغ الهلاك الاعظم والشر الاكبر بطرق امر صغير الخطر في الظاهر عظيم البلية في الباطن فلا يزال الرجل ينظر منهم الى قاتل ابيه واخيه وحميمه وذوي قرابته واهل مودته والنافع كان ثم تحمل العداوة في قلبه والضغينة العظيمة عليه و يستعد للنقمة منه وطلب الذحل عنده فيبث تلك الضغائن في الابناء بعد الآباء فانظروا يا اهل الاسلام من اين دب الشيطان بلطيف مسالكه وعلى اي شيء ورد والى اي امر تسامى حتى عم بالمعصية اهل الاسلام عامة اه .

واستفدنا ايضاً من هذه الرسالة ان البلاد كانت تموج بالفتن اواخر عهد الخليفة

مروان بن محمد الأموي وان عبد الحميد يريد بتأثير قلمه ان ينزع اهل الاقطار عن التردي في مهالكها . ولكم كتب من مثلها منذ نادى اهل خراسان بشعار العباسيين ياترى ؟ . وما نظن الا ان مجموعة رسائله تبلغ اكثر من الف ورقة لا كما قال بعضهم . وقد عرفنا بهذا النموذج الضئيل الذي بقي من ذاك التراث العظيم ان صاحبنا كان بعيدَ النظر في السياسة شديد الغيرة على سلطان بني أمية عارفاً بما سيحل بالدولة وود لو يحتال لها بمخرج ينجيها ولو بعض الشئ من المأزق الذي صارت اليه فأراد سيده ان يعمد الى الزواج السياسي ويتقرب من بني هاشم بالاصهار اليهم .

قال لمروان حين رأى علو امر بني العباس : أتتهمني يا امير المؤمنين فيك قال : لا . فقال له : أرأيت ابراهيم بن محمد بن علي أليس ابن عمك قال : بلى . قال : فاني ارى اموره تنبغ[1] عليك فانكحه وانكح اليه ، فان ظهر كنت قد اعلقت بينك وبينه شيئاً ، وان كفيته لم تَهْنَ بصهره . فقال : ويحك والله لو علمته صاحب الامر لسبقت اليه ولكن ليس هو بصاحبه فقال له : وما يضرك من ذلك وهو من القوم الذين تعلم ان الامر منتقل اليهم لا محالة وان الصواب ان تعلق بينك وبينهم شيئاً . قال مروان : والله اني لاعلم ان الرأي فيما تقول ولكني اكره ان اطلب النصر باحراح النساء .

وكان عبد الحميد يقول : اكرموا الكتّاب فان الله عز وجل اجرى ارزاق الخلق على ايديهم . وكان يقول : ان كان الوحي ينزل على احد بعد الانبياء فعلى بلغاء الكتاب . ومن غرر كلامه : القلم شجرة ثمرها الالفاظ . والفكر بحر لؤلؤه الحكمة . ومن كلامه « خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً . ويروى انه مر بابراهيم بن جبلة وهو يكتب خطاً رديئاً فقال : أتحب ان يجود خطك قال نعم . قال : أطل جلفة قلمك واسمنها وحرف قطتك وايمنها . قال : ففعلت ذلك فجاد خطي . وذكر صاحب الصناعتين ان عبد الحميد كان اذا استخبر الكاتب في كتابه فكتب خبرك وحالك وسلامتك . فصل بين هذه الاحرف ويقول قد استكمل كل حرف منها آلته . ووقع الفصل عليه . وكان كثيراً ما ينشد :

---

(١) تثور وتفشو .

اذا خرج الكتاب كانت دُوِيُّهم قسياً واقلام الدوي لها نبلا

ومما اختير له من الشعر وهو في طبقته مما لا يتناسب مع كتابته قوله :

ترحل ما ليس بالقافل واعقب ما ليس بالزائل
فلهفي على خالف قادم ولهفي على سلف راحل
سابكي على ذا وابكي لذا بكاء مولهة ثاكل
فتبكي من ابن لها قاطع وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبا ورد التقى عن الباطل

ومن شعره :

كفى حزناً اني ارى من احبه قريباً ولا غير العيون تترجم
فاقسم لو ابصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنا نتكلم

« البحث صلة »

كتاب المداخلات

او المداخل

— ٢ —

١٦ (باب الآما) — قال: اخبرنا ثعلب عن عمرو بن ابي عمرو عن ابيه قال الآما[١] النعشة والنعشة النهضة والنهضة[٢] العتبــة والعتبة [٣] حمارة الطنبور والحمارة واحدة الحمائر وهي حجارة تجعل حول الحوض وانشدنا [٤] ابو عمر ·

ومبلد [٥] بين موماة ومهلكة   قطعته بعلاة الخلق عليــان
كأنما الشحط في اعلى حمائره   سبائب الريط من قز وكتان

أراد مبلداً وهوالحوض القديم وعلاة الخلق قوية الخلق والعلاة سندان الحداد ، عليان سريعة والشحط ذرق الطير شبّهه بشقاق [٦] بيض فقال هذا الماء على بعده وهجر الناس له [٧] قد جئته واستقيت منــه · والحوض [٨] الحركة والحركــة [٩] منع البحر الصيد

(١) في الاصل بالموضعين ممدوداً مصحفاً · ولعا تقال للعاثر دعاءً له بالانتعاش ·

(٢) النهض والنهضة العتبة اي الغليظ من الارض تبهر فيه الدابة ·

(٣) كما في مختصر الوجوه ص٧٦ وفي المعاجم العتبة العيدان المعروضة على وجه العود منها تمد الأوتار الى طرف العود · وانظر لمعاني الحمارة مختصر الوجوه ص ٣٣ والتاج ·

(٤) هذا قول ابي عبدالله العباسي راوي المداخل عن ابي عمر · (٥) البيتان في التاج واللسان (بلد ، حمر) عن ابن الاعرابي بلفظ جاوزته بعلاة الخ قال اصله مُلْبِد فقلب وهو اللاصق بالارض · والمبلد بكسر اللام ونفتح الحوض القديم والعليان بالكسر ونفتح الناقة المشرفة والمعنى سريعة (وهذا مما زيد على المعاجم) · (٦) جمع شِقّة القطعة من الثوب ·

(٧) في الاصل (اليه) مصحفاً · (٨) هذه (زيادة) في اللسان والتاج عن الأصمعي اني لأدور حول ذلك الامر واعوّض (مشدداً) حوله بمعنى · (٩) (هذا مما زيد على المعاجم) كما مر في الباب الاول والحركة بمعنى منع البحر الصيد في مختصر الوجوه ص٣٤ وفي التاج يقال حرك البحر يحرك اذا قلّ صيده وذلك في زمن الصيف وهي ايام الحُراك ·

والصيد[1] الماء يصاب بلا طلب والطلب البعد والبعد الهلاك والهلاك الفناء والفناء [2] الثناء في بعض اللغات والثناء (المدح و) الذم والمدح خلاف الذم والذم جمع ذَمّة وهي البئر القليلة الماء وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي [3] .

ارجي نائلاً من سَيب رب　　له نعمي وذَمّته سِجال

و يروى وذِمته بالكسر . قال ومن روى بالفتح اراد ماء البئر يعني قليلَه وكثيرَه وسِجال مع فتح الذال الدلاء واحدها سَجل وهي الدلو الكبيرة ومن روى بالكسر اي كسر الذال أراد عقده محكم وسجال من سَجَل اذا فسق[4] .

١٧ (باب البرطيل) — قال واخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي وعن عمرو عن ابيه قال : البِرْطيل الحجر والحجر الذهب والذهب [5] مكيال لاهل اليمن والمكيال المجازاة يقال كِلْت له اكيل كيلاً اذا جازيته والكيل السعر يقال كيف الكيل عندكم اي كيف السعر وانشدنا ثعلب عن عمرو عن ابيه [6] :

فان يك في كيل اليمامة عسرة　　فما كيل ميافارقين بأعسرا

(١) الموجود في اللسان ومستدرك التاج عن ثعلب صدنا ماء السماء أخذناه فهذه مما زيد على المعاجم و يأتي في الباب (الـ ١٨) .

(٢) اي بالفتح فيها وليست في اللسان والتاج بل الموجود فيهما هذه اللغة في فِناء الدار وثِنائها فهذه مما زيد على المعاجم . (٣) كما في اللسان (ذمّ) سجل ابن سيده قد يجوز ان يعني به الغزيرة والقليلة الماء اي قليله كثير ورواه الاصمعي بالكسر اي عهده محكم من قولك سجّل القاضي لفلان بماله اي استوثق به . (٤) لم أقف على هذا المعنى وكلامه يقتضي « اذا أحكم » . (٥) كما في اللسان والقاموس وفي مستدرك التاج ورأيت في هامش نسخة لسان العرب ما صورته في نسخة التهذيب بسكون الهاء . اقول لا يوجد على هامش المطبوعة . وابو عمر الزاهد ثقة . (٦) البيت في البلدان ومعجم ما استعجم رسم «ميافارقين» ولفظ الاخير أنشد ثعلب عن عمرو عن ابيه فان الخ . قال والكيل هنا السعر يقال كيف الكيل عندهم اي كيف السعر والكيل المجازاة كلت له اي جازيته اه فكأنه من المداخل وعمرو هو ابن ابي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

١٨ (باب الجُحال) — اخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال سألت اعرابياً وما رأيت أفصح منه مذ ثلاثون سنة فقلت له ماالجُحال[1] قال القشب قلت فما القشب قال الذُعاف قلت فما الذعاف قال الذئفان[2] قلت فما الذئفان قال الذيفان[3] قلت فما الذيفان[3] قال الأرقد[4] قلت فما الرقد[4] قال الجوزل قلت فما الجوزل[5] قال الحرسم[6] قلت فما الحرسم[6] قال السَمّ قلت فما السم قال ثقب الإبرة قلت فما الإبرة قال رأس الرَوْق قلت فما الروق قال المِدرى قلت فما المدرى قال قرن الجارية قلت فما الجارية قال الخولة[7] قلت فما الخولة قال الظبية[8] قلت فما الظبية قال الجراب الصغير قلت فما الجراب قال بَدَن (٩) البئر قلت فما البدن قال الدرع الحديد[10] قلت فما البدن ايضاً قال الرجل[11] المتماسك في جسمه . قال ابو عبد الله[12] العباسي وسمعت بعض اصحاب ابي عمر رحمه الله يقرأ عليه في غير نسختنا قلت فما البدن قال الشيخ[13] المسن قلت وما البدن[14] ايضاً قال الثيتل قلت وما الثيتل قال الحطان[15] قلت وما

(١) بتقديم الجيم (وكان في الاصل بتقديم الحاء عليها) السم كالقشب محركاً .

(٢) في الاصل الذيقان مصحفاً والذئفان بالكسر والهمز السم . (٣) في الاصل الذيمان مصحفاً والذيفان بالفتح ويكسر ويحرك السم . (٤) الأرقد والرقد لم اجدهما ولا مصحفاتها بمعنى السم . (٥) السم : ابو عبيدة لم نسمعه الا في شعر ابن مقبل . (٦) كان في الاصل الحرشم مصحفاً . وحرسم كزبرج وضفدع السم القاتل ولكن الحاء غير ثابت والثابت جُرْسُم كقنفذ مقيداً بخط اللحياني قال الأزهري وهو الصواب وكذا رواه كراع ايضاً وضبطه بعضهم بالحاء وردّه الازهري . (٧) لم اجد من معاني الجارية شيئاً يوافق المقام اللهم الا ان يكون الخولة وردت بمعنى الخوَل « محركاً نعمة الله » وهي معنى الجارية في مختصر الوجوه ص٢٣ وغيره . (٨) كما في المعاجم . (٩) يريد جوفها من الاعلى الى الأسفل .

(١٠) كذا باللسان ولا بأس به . (١١) لم أجد المعنى في المعاجم الحاضرة فهذه مما زيد على المعاجم . (١٢) هو الحسين بن احمد بن بريهة راوي المداخل تقدم في المقدمة .

(١٣) يوجد المعنى . (١٤) البدن والثيتل الوعل المسن « اللسان والتاج » .

(١٥) التيس من ح ط ط .

الحطّان قال البغيبغ [(١)] قلت وما البغيبغ قال العلهب [(٢)] قلت وما العلهب قال تيس الجبل · وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

قد(٣) قلتُ لما بدت العُقاب وضمّها والبدنُ الحِقابُ
جِدّي لكل عمل ثواب الرأس والاكرُعُ والإهابُ

١٩ (باب العريج) — قال اخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال العريج كلب [(٤)] الصيد والصيد [(٥)] اخذ الشيء بلا تعب يقال صدت ظبياً وصدت بيضةً وصدت كمأة اذا اخذته بلا تعب والاخذ [(٦)] نجوم منازل القمر كل ليلة والقمر بؤبؤ [(٧)] العين والعين [(٨)] خاصة الملك ووليه · قال ابن الاعرابي ومنه خبر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه انه كان يطوف بالبيت فقال له رجل ياامير المؤمنين ان علياً لطمني فقال له عمر يا اباالحسن ألطمتَ عين هذا الرجل · قال نعم · قال فلِمَ يا اباالحسن ؟ فقال : لاني رأيته ينظر الى حرم المسلمين في الطواف فقال له احسنت · ثم اقبل على الملطوم فقال وقعت عليك عين من عيون الله تعالى · قال ثعلب فسألت ابن الاعرابي عنها فقال خاصة من خواص الله ووليٌّ من اوليائه وحبيب من احبائه · والعين الركية والركية [(٩)] اصل الصلّيانة اذاقطعت والقطع [(١٠)] الخنق وهو مصدر خنقته خنقاً قال القاضي والاصل في الصلّيانة شجرة تأكلها الخيل عند عدم العلف ويقال لاصول الصلّيان الدِندِن وانشد الخليل بن احمد «لحسان» (١١) :

(١) تيس الظباء السمين · (٢) التيس الطويل القرنين · (٣) اللسان يصف وعلاً وكلبة اسمها عقابُ والحِقاب جبل بعينه · يقول أصطادي هذا التيسَ وأجعل ثوابكِ الرأس والاكرُع والإهاب · (٤) غيره الكلب الضخم · (٥) تقدم في الباب (الـ ١٦) انه الماء يصاب بلاطلب · (٦) نجوم الاخذ منازل القمر لان القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها وهي نجوم الانواء «التاج» · (٧) بياض المقلة كما في مختصر الوجوه ص ٩٠ · (٨) هذا بعينه لفظ مختصر الوجوه (ص ٧٨) والعجب ان المعنى فات « التاج» فهذه مما زيد على المعاجم ·
(٩) لم اجد المعنى في المعاجم لا معتلاً ولا مهموزاً (فهذا مما زيد على المعاجم) ·
(١٠) قطع الرجل الحبل او بحبل اختنق فالقطع الإختناق وإطلاق الخنق تجوّز بل زيادة · (١١) من معروف شعره راجع ديوانه ليدن (ص ٦٩) ·

المال يغشى رجالاً لا طباخ بهم كالسيل يغشي اصول الدندن البالي

قال واخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي يقال خنقته(١) وقطعته وذعته وذعطته وذرعته قرئت هذه اللفظة على ابي عمر وأنا اسمع وحلقته وزردمته وفطأته وسأبته وسأته . قال وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

ولا تزال بَكْرة قطّاره يسأبها بمجلها عُماره

قال ابو عمر البكرة التي يستقى (٢) عليها مسكّنة الكاف لا غير فاذا حركت فهي جمع باكر مثل جاهل وجهلة .

٣٠ (باب السندل) — قال واخبرنا ثعلب عن عمرو عن ابيه قال السندل(٣) جورب الخف والخف الجمل(٤) المسن والجمل دابة في البحر يقال لها الكُبع(٥) طويلة الوجه هائلة من دواب البحر ومنه قول الجارية للجارية تُسابّها يا وجه الكُبع والبحر الماء الملح والملح(٦) الارضاع يقال ملحنا في بني فلان وملحناهم اي ارضعناهم ورضعناهم والارضاع(٧) الوصال يقال ارضعت الشيء بالشيء اذا واصلته وانشدنا ثعلب عن عمرو عن ابيه :

وترضع(٨) حاجة بلبان اخرى كذاك الحاج ترضع باللبان

(١) كلمات الخنق توجد كلها في المخصص (٦ : ١١٥ و١١٦) . زعته عن العين زعتاً وكان في الاصل دعته مصحفاً . وقطعته كأنه يراه متعدياً فهذه مما زيد على المعاجم وذرعته (في الاصل درّعته وهو ايضاً بمعنى خنقته) وابو زيد زرّعت له وضعت عنقه بين ذراعي وعضدي لخنقته . وحلقته اصبت حلقه وزردمته وزردبته فارسية اصله أزار دمه بمعنى وجع النفس (وغلط ابن سيده في تفسيره) . وفطأته ضربته على ظهره مثل حطأته وقيل هو الضرب في اي عضو كان ومعنى الخنق (هذا مما زيد على المعاجم) وسأبته وسأته خنقته حتى مات . (٢) بالاصل يسقى . (٣) اهمله الجوهري والمجد والصاغاني وهو في اللسان ومستدرك التاج (٤) كما في المعاجم . (٥) في اللسان والتاج الكُبع جمل البحر وجمل الماء قيل انه البجع والحوصل . (٦) انظر الكامل لبسيك ص ٢٨٤ . (٧) لم اجد الارضاع للمواصلة في المعاجم (فهو مما زيد على المعاجم) . (٨) البيت في اللسان «لبن» وأرضع الخ عن ابن سيده .

٣١ (باب الدفو) — اخبرنا ثعلب عن ابن نجدة عن ابي زيد قال الدفو (١) غير مهموز القتل والقتل مزج الشراب والمزج (٢) العسل والعسل اضطراب القصبة اذا حركت والقصبة النالة (٣) والنالة وسط الجدل والجدل القصر والقصر المنع يقال قصر جاريته اذا منعها من التبرج فهو قاصر وهي مقصورة وقصيرة وقصورة (٤) وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

وانت (٥) التي حببت كل قصيرة   اليّ وما تدري بذاك القصائرُ
عنيتُ قصيرات الحجال ولم أرد   قصار الخطا شرُّ النساء البهاتر

البهاتر القصائر ومثله البحاتر ·

٣٢ (باب القطاج) — قال اخبرنا ثعلب عن عمرو بن ابي عمرو الشيباني عن ابيه قال القطاج (٦) قلس السفينة والقلس (٧) ما يخرج من فم الصائم من الطعام والشراب والشراب الخمر والخمر الخير والعرب (٨) تقول ما عند فلان خل ولا خمر اي شر ولا خير والخير الخيل ومنه قول الله عز وجل (اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب والخيل (٩) الظن والظن (١٠) القسم قال واخبرنا ثعلب عن سلمة عن الفراء قال من العرب من يقول اظن انّ زيداً لخارج يعني والله انّ زيداً لخارج وانشدنا (١١) عن سلمة عن الفراء :

اظن لاتنقضي عنا زيارتكم   حتى يكون بوادينا البساتينُ

٣٣ (باب القطامي (١٢)) — اخبرنا ثعلب عن سلمة عن الفراء قال القطامي النبيذ والنبيذ (١٣) الملقوط في الصبيان والملقوط الثوب المرفُوُّ والمرفو المسكَّن وانشدنا ثعلب

---

(١) الاجهاز على الجريح · (٢) المعروف بالكسر وبفتح · (٣) النالة وسط القرية وجوفها كالقصبة · (٤) كما في المعاجم · (٥) من معروف شعر كثيّر عزة · والبحترة والبهترة القصيرة · ويروى البحاتر · (٦) بالفتح ويكسر · (٧) اي خروج مايخرج الخ فانه في الاصل مصدر · (٨) مثل انظره في المستقصى (خط) وجمهرة ابي هلال بطبعتيه ١٩٣ و ٢ : ٢١٩ · (٩) مصدر خاله كذا · (١٠) المعروف انه يأتي بمعنى العلم واليقين · في اللسان والتاج · ومعنى القسم (وهذا مما زيد على المعاجم) · (١١) ثعلب · (١٢) بالفتح ويضم النبيذ الشديد · (١٣) والمنبوذ ولد الزنا الملقى على الطريق كما في التاج ·

عن سلمة عن الفراء عفي عنه ·

رَفَّوْني وقالوا ياخو يلد(١) لا تُرَعْ فقلتُ وانكرتُ الوجوه هُمُ هُمُ

والمسكَّن المقوَّم من الرماح بالسكَن (٢) والسكن النار والنار السِمَة قال وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

حتى (٣) سقوا آبالهم بالنار والنار قد تشفي من الأُوار

الآبال جمع إبل والأُوار العطش وأُوار الحر شدته واول(٤) مايستقبلك منه يقول هذه إبل(٥) اسم سمتها النار فتقدم شرفه اهلها عند الورد فقد شفي أُوارها ·

٢٤ (باب القَتَع) — قال واخبرنا ثعلب عن عمرو عن ابيه قال القتع (٦) الدود والدود(٧) الحصف والحصف(٨) إحكام فتل الحبل والحبل العهد والعهد العقد والعقد(٩) الجمل القصير القوائم الطويل السنام فاذا (١٠) مشى مع الجمال قصَّر عن طولها واذا برَكَ معها طالها لطول سنامه وانشدنا ثعلب عن عمرو عن ابيه :

---

(١) اسم ابي خراش الهذلي صاحب البيت قال التبريزي رفَّوْني خدعوني وقالوا لا بأس عليك و يقال سكَّنوني ذكر قوماً قعدوا له على طريقه وقد عاد من الحج ليقتلوه · تهذيب الالفاظ ص١١٩ و ٥٨١ والخزانة ١ : ٢١١—٢١٣ ·

(٢) محركاً النار وكل مايسكن اليه وفيه وبه ·

(٣) كذا في اللسان وفي الكتاب الكامل «لبسيك ص٢٧٩» قد سقيتْ آبالهم ·

(٤) في الاصل اقل مصحفاً · (٥) العبارة بحيث ترى قلقة البنية والمغزى واضح اي ان هذه إبل عليها سمة النار لاربابها فعرفوها فتقدَّم شرفهم عنداهل الماء سقي إبلهم الماء عند الورد · (٦) محركة دود حمر تأكل الخشب والواحدة قتعة وقيل هي الأَرضة ·

(٧) في التاج بثر صغار تقيح ولا تعظم وربما خرجت في مراق البطن أيام الحر هذا معنى الحصَف وليس من معاني الدود في شيء (وهذا مما زيد على المعاجم) ·

(٨) المعروف بهذا المعنى الإحصاف (وهذا مما زيد على المعاجم) ·

(٩) في اللسان والتاج العقد الجمل الموثق الظهر (وهذا مما زيد على المعاجم) ·

(١٠) مثل هذا في اللسان (تكلك) عن ابي علي ·

ارسلتُ(١) فيها زَجِلاً أُكالِكا يقصرُ يمشي ويطول باركا

قال ثعلب الزَجَل الصوت والزَجِل من الجمال الذي يصيح والأُكالك العظيم الخَلق ·

٣٥ (باب القيم) — قال واخبرنا ثعلب عن عمرو عن ابيه قال القيم السِنَّور والسنور السيد قال ابوعمرو الشيباني وأتى اعرابي بعض القبائل فقال مَن سنّوركم يابني فلان قال فزمّ القوم · فقال رجل منهم أقولها يابني فلان ؟ قالوا قلها انت لها قال انا سنّورهم اي سيدهم قال ابوعمر قلت لثعلب كيف سموا السيد سنّوراً قال لان عظم حلق الفرس يقال له السنور (٢) وهو أعز موضع في الفرس لانه مستقر رأسه والسيد الرئيس والرئيس الشاة التي عقر(٣) رأسها والشاة الثور والثور (٤) ظهور الحصبة والحصبة حصاة الجمرة والجمرة الفحمة والفحمة القسورة والقسورة ظلمة اول الليل والاول يوم الاحد قال ابو عمر وأنشدنا ابوموسى الحامض عن ثعلب :

أؤمل ان اعيش وان يومي باولَ او باهونَ او جبارِ

او التالي دُبار فان أُفُته فمؤنس او عروبة او شيار

قال ابو عمر قال لي ابو موسى(٥) قلت لثعلب هذا الشعر موضوع قال لم قلت لان جبار ومونس وشيار تنصرف فقال الشعر يحتمل ما لا يحتمله الكلام · قال والاول يوم الاحد والاهون يوم الاثنين والجُبار يوم الثلاثاء والدُبار يوم الاربعاء والمؤنس يوم الخميس وعَروبةُ يوم الجمعة وشيارُ يوم السبت فأول الايام الأحد واول الاسبوع السبت · قال هذا كان عند العرب · قال ابوعمر أخبرني الكديمي عن رجاله عن ابن عباس قال ان الله تعالى خلق الجنة يوم الخميس وسماه مونساً ·

---

(١) في اللسان قَطِياً وهو الجمل الهائج والثاني والرابع ، من الذريحيات جعداً آركاً ، كأنه مجلل دَرانكا ، واللكالك الجمل المكتنز اللحم ·

(٢) كذا في التاج عن ابن الاعرابي · غيره السنورة فقارة العنق من اعلى ·

(٣) اصيب · (٤) في اللسان والتاج الثور ثوران الحصبة وثارت بفلان ثوراً وثؤراً وثواراً وثوراناً انتشرت وحكى اللحياني ثار الرجل ثوراً ظهرت فيه الحصبة وهو مجاز ·

(٥) رواية ابي موسى عن ثعلب توجد في اللسان (عرب) ·

٣٦ (باب البرطنج) — قال واخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال البرطنج (١) الحزام العريض والعريض الجدي والجدي النجم والنجم الذي تعرف به الكعبة والكعبة البيت المربع والبيت المرأة قال وأنشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال :

لم يختر البيت على التغرب ولااعتناق رحله عن مركب

فهو ممر كمقاط (٢) القنب

٣٧ (باب القسورة) — قال ابو عمر : واخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال (٣) القسورة ظلمة الليل والليل فرخ الكروان والكروان ضرب من الطير والضرب (٤) الرجل بين الرجلين لاطويل ولا قصير والقصير الممنوع يقال قصره قصراً اي منعه منعاً والمنع السرطان وقد مضى ذكره (٥) والسرطان داء يعرض في الساق و يجوز (٦) بالفتح والساق النفس والنفس (٧) الدم والدم الطلاء بالقطران والطلاء (٨) الخيط وأنشد ثعلب عن ابن الاعرابي فقال :

ما زال مذ فرق عنه (٩) خلبه

٣٨ (باب الهلج (١٠)) اخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال الهلج احلام (١١)

---

(١) فاتت اللسان والتاج والمعرب للجواليقي ولأدي شير . وذكرها ابن دريد في كتاب السرج واللجام له وهذا لفظه : البرطنج حزام يشد فوق السرج اه وهي فارسية اصلها (برتنگ) بمعنى الحزام الاعلى (وهذا مما يزيد على المعاجم) . (٢) الحبل الصغير يكاد يقوم من شدة فتله . (٣) مضى اكثر الباب . (٤) طرفة : «أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه» .

(٥) في الباب الاول . (٦) ظاهره إن لم يكن مصحفاً أنه يجوز بالفتح وان كان الاصل تحريكه ولم أجده في المعاجم (وهذا مما يزيد عليها) . (٧) مشددة لغة في الدم المخفف وهذا ليصح قوله والدم الطلاء فانه مشدد . (٨) في التاج الطلاء الحبل الذي يشد به رجل الطلى وفي اللسان الطلي والطلو والطلوة والطلي والطلية والطلية .

(٩) بالضم الحبل الصغير قال : كالمسد اللدن أمر خلبه «اللسان» .

(١٠) الباب نقله الحاج خليفة في رسم المداخل .

(١١) اي أضغاث الأحلام .

نائم واحلام نائم ثياب غلاظ كانت تعمل بالمدينة واحدها ثوب والثوب (١) القلب والقلب العقل والعقل الوثم والرقم الروضة والروضة(٢) الماء يبقى في الحوض وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

وروضةٍ سقيتُ منها نضوتي

٣٩ (باب فسوة الضبُع) — اخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال فسوة (٣) الضبُع شجرة تحمل كالخشخاش حملاً لا يتحصل منه شيء قال ابو عمر الزاهد ويجوز (٤) الخشخاش بكسر الخاء والخشخاش (٥) الكتيبة والكتيبة الطبيَّة (٦) اذا جمعت طبيتُها والظبية الجراب والجراب(٧) الفم والفم النهَر(٨) والنهَر الدم المدال والمدال(٩) التراب وانشدنا ثعلب عن ابن الاعرابي :

(١) في قول امرئ القيس : (فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسلي) قال النحاس في شرحه ص١٩ يعني قلبه من قلبها قال الله عز وجل (وثيابك فطهّر) ومثله قول عنترة : (فشككت بالرمح الطويل ثيابه) .

(٢) قدر ما يغطي ارض الحوض من الماء والشطر في اللسان ايضاً ومثله لحميان السعدي :

(وروضة في الحوض قد سقيتها نضوي وارض قد ابت طويتها)

(٣) هذا قول ابن خالويه كما في اللسان . وغيره : ضرب من الكمأة . ابو حنيفة : هي القعبل .

(٤) هذه مما زيد على المعاجم .

(٥) اللسان عن الصحاح الجماعة عليهم سلاح ودروع .

(٦) ان لم تكن تصحيف الظبية فانها كغنية الناقة المسترخية الاطباء والظبية (الثانية) حياؤها (مختصر الوجوه ص٧٠) وانما رجحنا الطبية لان ارباب المعاجم لفظهم في هذا المقام المكتوبة الناقة اوالبغلة التي شد حياؤها بالكُتبة لئلا ينزى عليها والمذكور في اللسان الكتيب للقربة المشدودة الفم فالكتيبة بالمعنى (وهذا مما زيد على المعاجم) .

(٧) لم أجده بالمعنى (وهذا مما زيد على المعاجم) وقد مرّ في الباب (الـ ١٨) ان الجراب بدن البئر اي جوفها .

(٨) غيره الماء الجاري في الانهار .

(٩) لا يوجد المعنى فهذه مما زيد على المعاجم .

أحثو (١) التراب على محاسنه وعلى غراوة وجهه النضر

قال الغراوة الحسن وانما سمي الغَرِّي غرِّياً لحسن من فيه · قال أَحثُوْ إخبار ليس أمراً ولو كان أمراً كان مجزوماً مفهوم الالف ·

٣٠ (باب الفواس(٢)) — واخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال الفواس (٢) تشنيج سعف النخل والسعف(٣) جهاز العروس والعروس المعروف(٤) او المرأة وضده المنكر والضد الخلاف والخلاف الكُمّ يقال جعلته في خلافي اي في وسط كمي وانشد ثعلب عن ابن الاعرابي :

الا (٥) بزعزاع يسلي همي يسقط منه فتخي في كمي

تم الكتاب بفضل الملك الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ·

---

(١) في الاصل على محاسن وجهه مصحفاً ومختل الوزن والبيت من كلمة من خير شعر العرب أنشدها المفضل لامرأة ترثي ابناً لها ومطلعها :

يا عمرو ما لي عنك من صبر يا عمرو يا أسفي على عمرو
لله يا عمرو وأي فتى كفنتُ يوم وضعتُ في القبر
أحثو التراب على مفارقه وعلى غضارة وجهه النضر

وهي (٣٣) بيتاً انظرها في زهر الآداب للحصري (الرحمانية ٢ : ١٠٦—١٠٨) · (٢) لم أجد المعنى لهذه الكلمة ولا لشيء من مصحفاتها معنى ولم يذكر معظم اللغويين مادة (ف و س) اصلاً · (٣) كذا في مختصر الوجوه · (٤) يريد الزوج اي الرجل · (٥) الشطران مصحفان في الاصل وهما من رجز روى ابن طاهر في باب بلاغات النساء من كتاب المنثور والمنظوم (ص ١١٣) عن الكلبي · امرأة يقال لها ام الورد تزوجت برجل فعجز عنها فتقدمت الى والي اليمامة فقالت له : والله ما يسكني بضم ولا بتقبيل ولا بشم الا الزعزاع يطيح منه فتخي في كمي قال ففرّق بينهما الى آخر الخبر ولكن في أضداد الجاحظ في باب مساوئ العنّين ان هذا الخبر والاشطار في العجاج بزيادة (يطير منه حزني وغمّي) · وفي محاضرات الراغب (٢ : ١١٩ سنة ١٣٢٦ هـ) من غير عزو بزيادة ليس بهذا أمرتني أمي في الاول وفي الآخر لمثل هذا ولدتني أمي ·

قال مصحح الكتاب: وهذه زيادات على كبار المعاجم: كاللسان والتاج وغيرهما مرتبة. وذلك ان هذه المعاجم لم تأخذ حوشي اللغات وشواذها المروية عن ابي عمر بطريق ابن خالويه وابي الطيب اللغوي واسحق بن محمد الآمي صاحب (الوجوه) الا قليلا ولهذا ترى بعضها مدونة في مختصر الوجوه مع ان صاحبه ألغي عويصها بالمرة ولكن لما كان صاحب الوجوه اكثر من النقل عن يواقيت ابي عمر بقي في مختصره ايضا بعض اشياء.

وهذه الزيادات في صور الكلمات وصيغها تارة وأخرى في خصوصيات معانيها، ولا ادعي البراءة فربما يكون نظري شذ عن بعض ما في هاتيك المعاجم فحسبته فائتا وهو موجود، والعصمة لله وحده.

الباب

١٩ فطأته بمعنى خنقته
٩٠ السِرْب اسنان الجارية
٢٩ الكتيبة الناقة جمع حياؤها وشد بالكُتبة
٢٩ الجراب الفتح (؟)
١١ الإفت اليفنة (؟)
٢٦ البرطنج الحزام العريض
٧ الحاجة الشوكة
المقدمة الخُواج بمعنى الجوع
٢ الديباج الناقة اللينة المس
١٠ السرج الحسن
٣ السلاح شحم الإبل
٣ الخوخة الثوب الأحمر
٢٤ الدود الحصف (؟)
١٨ الأرقد او الرقد السم
٨ الرماد الهلاك
١٦ و١٨ الصيد الماء وكل ما يصاب بلا تعب

الباب

٢٤ العقد الجمل القصير القوائم الطويل السنام فاذا مشى مع الجمال قصر من طولها واذا برك معها طالها الطول سنامه
٨ الحُرّ حي من العرب
٨ الحُرّ الرماد
١ المطر كثرة السواك
١ النفس الماء
٣٠ الفواس (ان لم يكن مصحفا) تشنج سعف النخل
٢٩ الخشخاش (بالكسر)
٢ الابيض عرق في القفا
١٦ الحوض الحركة
٢٧ السرطان (بالفتح) هذا الداء المعروف
٤ الجعرا النخل الذي يحمل رطبا كبير النوى
٢٠ الإرضاع المواصلة
١٩ فطمته بمعنى خنقته

الباب

٢٤ الحصف إحكام فتل الحبل

٢ مرقة الحرير بفتح الراء وكسرها واحدة السرق

٨ الشولقيّ الطفيلي

١٦و١ الحركة منعُ البحر الصيدَ

٣ الفرسكة بالتاء الخوخة

٢٩ المُسال التراب

١٥ الحرام النملة

٣ الشحم البياض

الباب

١٨ البدن الرجل المتماسك في جسمه

٨ الجِنّة طبق الخيزران

٢٢ الظن القسم

١٩ العين خاصة الملك ووليه

٩ الحياء فرج المرأة

١٩ الزكية اصل الصدّيانة

١٦ العليان الناقة السريعة

١٦ الفناء هو الثناء لغة

تم ولله الحمد على ذلك سلخ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٤٦ (مايو سنة ١٩٢٨) بعليكرة (الهند) على يد العاجز

عبد العزيز الميمني
الراجكوتي



الاندلس

— ٣ —

« عبرة وذكرى »

قسمنا الحكم الأموي الى ثلاثة أدوار : (١) الولاية (٢) الامارة (٣) الخلافة . وتكلمنا عن الدورين الاولين ، ونحن الآن متكلمون عن الدور الثالث وهو الخلافة . نبدأ بالاحداث السياسية ، ثم نثني بالاعمال العمرانية ، على ما اخذنا به نفسنا من قبل .

الحالة السياسية قبل عبدالرحمن الناصر : قلنا : ان الأمويين كان قد التاث امرهم بعد عبد الرحمن الاوسط ، فدب الضعف والدسائس الى جهاز الدولة ، واخذت الفتن والفوضى بخناقها ، وجعل اعداء الدولة الاموية يرقبون زوالها في الغرب ، بين حين وحين ، كما زالت من قبل في الشرق .

وبينما العرب وامرهم عليهم غُمَّة : يزدادون فُرقة فيزدادون ضعفاً ، والاسبان : يزدادون وحدة فيزدادون قوة ، اذ بعبد الرحمن بن محمد المقتول ابن عبدالله ، يبايع له بالامارة بعد جده عبد الله .

ومحمد هذا ، كان قتله اخوه المطرف بن عبدالله بعد ان أبصر عبدالرحمن النور بيوم واحد . فنشأ عبدالرحمن في حَجر جده عبد الله . وبويع له بالامارة وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره . وبالحضرة اعمامه واعمام ابيه ، فلم يختلفوا فيه .

وما ادري كيف اتفقوا على مثله فتى ، في زمان كان فيه الاب يقتل ابنه في اقل من الامارة . ولعل قومه رأوا ما كانت عليه دولتهم من القلق والاضطراب ، وشعروا بما كان يهددها من زوال ، وآنسوا بعبد الرحمن مضاء العزيمة والحزم ، فجمعهم اليه ولو الى حين ، خوفهم من سوء العقبى .

واذا كان الامر قد آتاه من هذه الوجهة ، فقد قامت في وجهه من وجهات أخرى مصاعب جمة ، لا تقل شيئاً عما كان لقيه جده عبد الرحمن الداخل . خوارجُ متوثبة عليه في الداخل ، والاعداء متربصة به الدوائر في الخارج ، الاسبان من الشمال ،

والفاطميون من الجنوب . فكان عليه ان يضرب بسيف جده الداخل ، فيقاتل اهل البلاد من قومه ، ومن الاسبان ، وان يقاتل الفاطميين بدلاً من العباسيين الذين قاتلهم جده .

سياسته : رأى عبد الرحمن ان سياسة الضعف والتردد التي سار عليها الامراء المتأخرون من بني أمية ، قد أدت الى تفكك عرى الوحدة القومية ، فكان من وراء ذلك جماح العرب ، وطماح الاسبان ، فأخذ من امره بالحزم والشدة . غير انه حزم كانت تتقطع له نياط القلوب ، وشدة كانت تقشعر لهولها الابدان ، في كثير من الاحيان .

اظهاره الخلافة : ومن حزمه انه كان يهتبل الفرص فلا يتركها تمر مر السحاب . بلغه سنة ٣١٧ ان المقتدر بالله العباسي قد قتله مولاه مونس المظفر ، فبادر عبد الرحمن فأعلن الخلافة واتخذ لنفسه القابها : تسمى بامير المؤمنين ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وضربت السكة باسمه ، وخطب له على منابر البلاد ، وبعث الى الجهات بمنشور جاء فيه :

« اما بعد ، فانا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه . للذي فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، وسير على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه . وللذي اشاد في الآفاق من ذكرنا ، وعلو امرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الانعام بما أنعم به . واهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

وقد رأينا ان تكون الدعوة لنا بامير المؤمنين . وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق اضعناه . واسم ثابت اسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك ان يقول به . وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله . والله المستعان . »

ولسنا نقف عند ما قاله مؤرخونا من ان قتل الخليفة العباسي هو الذي دعاه الى اعلان الخلافة ، فلقد كان ذلك سبباً من الاسباب لا السبب كله ، والا فقد قتل قبل المقتدر غير واحد من الخلفاء العباسيين ، فما تحرك أموي في الغرب بدعوة ، ولا طالب من الخلافة بحق . ذلك ان القوم كانوا يعدون الخلافة الصحيحة خلافة المشرق ، فكان كل

عزيز منهم يرمي بابصاره اليها ، وكانوا يرون في امارة الاندلس مدرجة الى العودة الى الملك القديم . وحسبنا على ذلك ان عبدالرحمن الداخل ، خرج من الشام طريداً مشرداً ، لا ملك له فيه ، فأسس في الغرب الملك الذي رأينا غير انه ما برح يتشوق الى الشام ويعد نفسه في الاندلس غريباً .

وقد هم غير واحد من أمية بغزو المشرق والعودة اليه ، لولا ان شغلهم من الحروب والفتن ماذكرت بعضه ، فلما يئس عبد الرحمن الناصر من امر المشرق ، وقد توسطت بينه وبين خلافتها خلافة جديدة ، هي الخلافة الفاطمية بالمغرب ، رأى ان يكتفي بالاندلس ، يعلن فيها خلافته ، ويمشي بها رجوعاً الى ناحية المشرق على قدر ما يتيح معه الفتح .

اذا لم تستطع امراً فدعه ... وجاوزه الى ما تستطيع

ونحن بعد ، نجمل اعلان هذه الخلافة في أسباب خمسة :

١ — مكانة عبد الرحمن الناصر وطموحه

٢ — وقوف آماله عن غزو المشرق

٣ — قيام الخلافة الفاطمية وتوسطها بينه وبين الخلافة العباسية جرثومة الخلافة ، وانشغاله عن هذه بتلك .

٤ — ضعف الخلافة العباسية والتياث امرها .

٥ — قتل المقتدر العباسي

والسبب الخامس هو حجة ظاهرة انتحلها عبد الرحمن يتذرع بها ، وهو انه لم ينتزع الخلافة من صاحبها انتزاعاً ، وان كانت حقه ، ولكنه وجدها عاطلة تائهة فآواها وحلاها . أسلوب من أساليب الحيل السياسية من قبل ومن بعد .

حروب عبد الرحمن وقمعه للفتن : ——— نهض عبدالرحمن الى الحرب يباشرها بنفسه ، فقاتل الثوار وهم كثر ، في غير موطن قتالاً متواصلاً ، وكان أشدهم عليه بنو حفصون ، واولهم عمر . قال ابن خلدون : وهو اول ثائر كان بالاندلس ، وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة ايام محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٧٠ . خرج بجبل يشتر (   )

من ناحية رَيَّنْدَة ومالِقة ، وانضم اليه الكثير من جند الاندلس . وابتنى قلعته المعروفة هناك . واستولى على غرب الاندلس الى رُندة ، وعلى السواحل من الشيحة الى البيرة .

ومهما يكن من النظر في قول ابن خلدون ، من ان ابن حفصون هو اول ثائر ، فان الرجل كان قد مر عليه وهو ثائر عشرات من السنين ، قاتل فيها اربعة امراء من الأمويين : محمداً والمنذر وعبدالله وعبدالرحمن ، وراسل ابن الاغلب بافريقية ، واظهر دعوة بني العباس ، وخالص ملك الجلالقة ، وأعلن دعوة عبيد الله المهدي . فكان ابن حفصون هذا رجلاً قد عشش الخلاف في رأسه ، وفرّخت الفتنة في قلبه ، فرماه الله بعبد الرحمن ، فما زال به حتى راجع طاعة بني أمية . ثم تغلب عبد الرحمن على أبنائه من بعده : سليمان وجعفر وحفص أبناء عمر بن حفصون . بعدما تكرر من نكثهم ورجوعهم . فانقرض امر بني حفصون بعد ثورات دامت خمساً واربعين سنة من ٢٧٠ — ٣١٥ .

ولم يشغله قتال الثوار ، عن الاسبان والفاطميين . فكانت ايامه كلها جهداً وعناء يمالي من عنت الخوارج ، وتمرد العصاة ، وطمع ملوك الأطراف من المسلمين ، وقتال امراء النصارى في استوريا ، ونوارة ، وملكي [لاون] اوردنيو الثاني ، ورامير [ردمير] الثاني ، ومحاربة الفاطميين في إفريقية بعد ظفرهم بالادارسة ، وايغالُ جنوده الى السودان المصري . ومع هذا فقد خرج من معظم تلك الحروب ظافراً . فدوخ البلاد ، واخمد الفتن . وظفر بالمنتقضين عليه ، لم يراع منهم كبيراً ولا صغيراً ، قريباً كان او بعيداً ، قتل اخاه القاضي بن محمد ، وابن عم ابيه محمد بن عبد الجبار ، عند ما آنس منهما نية الانتقاض عليه ، بل قتل ابنه عبد الله بن عبد الرحمن لمثل ذلك .

فاستقامت له الاندلس بعد سبع وعشرين سنة ، قضاها في قتال كان يشهد اكثره بنفسه ، الى ان كان عام الخندق ، في آخر الربع الاول من القرن الرابع ، يوم اوقع رامير ملك لاون واشتورش بالمسلمين فقتل منهم خمسين الفاً . فقعد عبد الرحمن بعد ذلك عن الغزو بنفسه ، وصار يردد الصوائف في كل عام . فبلغ من بلاد الفرنجة مالم يبلغه غيره . وراسله ملوك النصارى ، واوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية مهادنة له ، وتزلفاً الى مرضاته . وجلس للوفود مجلساً عاماً كان من الايام المشهود في تاريخ العرب ، ظهرت فيه الخلافة الاندلسية في مظهر من الابهة والعظمة والفخامة ، ليس بعده غاية .

وعرضت الجيوش ، وأنشدت الاشعار ، وألقيت الخطب ، فشهدت الوفود مشهداً ترك في نفسها اثراً كبيراً من قوة الدولة ونظامها ٠

واتاه الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين في الاندلس ٠ وسما الى ملك العدوة فاخذ سبتة ، ونقل الفرضة من ايدي اهلها ، واطاعه بنو ادريس امراء العدوة ، وملوك زناتة والبربر ٠ وفتح طليطلة ، وقرمونة [1] ، واشبيلية ، وكثيراً من البلاد العاصية والبلاد المستقلة ٠

ومما يعد له في الدماء ، ومكارم الاخلاق ، ويجمل بالامراء من اصحاب الوطنية الحق ان يقتدوا به ، ما كان منه نحو اردون (اردونيو) ملك لاون [2] وقد غزا بجيوشه ماردة ،

(١) قرمونية او قرمونة وهو الاكثر ، كورة بالاندلس يتصل عملها باعمال اشبيلية غربي قرطبة وبينهما اثنان وعشرون فرسخاً ، وشرقي اشبيلية وبينهما سبعة فراسخ ٠ قديمة البنيان ٠ عصت على عبدالرحمن بن محمد الأموي فنزل عليها بجنوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت الى بعض ما كانت عليه ٠

قال ابن صارة الاندلسي في بعض ملوك العرب — ولعله الناصر — وكان قد فتح قرمونة :

اظل على قرمونة متجليـاً ... مع الصبح حتى قلت كانا على وعد
فارملها بالسيف ثم اعارها ... من النار اثواب الحداد على الفقد
فياحسن ذاك السيف في راحة العلى ... ويا برد تلك النار في كبد المجد

(٢) أردنيو (Ordogno) اسم عدة ملوك من ملوك استورياس ولاون ، اشهرهم اردنيو الثاني ملك من سنة ٩١٢—٩٢٣ ٠ هجر اوڤيادو وأقام بلاون واخذ طلبيرة وخربها وحارب عبدالرحمن الناصر سنة ٩١٦ ومضى لمساعدة نوارة وانكسر في واقعة فالجنكويرا سنة ٩٢٢ ٠ وقال ابن خلدون : وفي اول المئة الرابعة للهجرة ملك على الجلالقة اردون ابن رذمير بن برمند بن قريوله بن اذفونش بن بيطر وخرج سنة ٣٠٢ الى الثغر الجوفي لاول ولاية الناصر وعاث في جهات ماردة واخذ حصن الحنش وبعث الناصر وزيره احمد ابن عبدة في العساكر الى بلاده فدوّخها ثم أغزاه ثانية ٣٠٥ فنكث ؟ وقتل ؟ ثم اغزى بدراً مولاه فدوّخ ورجع ثم غزا بنفسه بلاد جليقية ٣٠٨ واستنصر اردون بشانجة بن

فنهبها وعاث فيها ، واخذ حصن الحنش وانتهى الخبر الى عبدالرحمن وهو مشغول بمحاربة الفاطميين بافريقية ، فلم يعقه ذلك ، ولا منعه ان ماردة كانت ثائرة عليه ، من ان يوجه الى نصرتها وزيره احمد ابن ابي عبيدة[1] فيهزم الاسبان ، ويغنم منهم غنائم كبيرة و يسبي فيهم سبياً كثيراً .

استألف الناصر جيرانه بعهود عقدها بينه وبينهم ، منهم اردن (اردونيو) الثاني ملك ليون و (شانجه) سانكو ملك نافار البشكنس .

كان عبد الرحمن من الملوك الذين لايجود الزمن بامثالهم الا قليلاً . ما نقول هـذا عصبية قومية بل حقيقة تاريخية ، اعترف بها مؤرخو الغرب فأوسعوا لاسم عبد الرحمن مجالاً في كبيرات معلماتهم على قلة ما يفعلون ذلك برجالنا .

وعبد الرحمن الناصر كان عظيماً في كل شيء . في تدبيره وفي همته ، وفي حربه وفي بأسه ، وفي فتكه وفي عفوه ، وهو ما اشرنا اليه . وفي مناصرته للعلم ، ومعاضدته للعمران ، على ما نذكره في موضعه . واذا كان يعد عليه انه قتل ابن عم ابيه ، وقتل اخاه ، بل قتل ابنه ، فهذا امر لا يعنينا كثيراً لانه من الامور الخاصة ، وهو أعلق من حيث العواطف بنزعة الرحمة والشفقة ، منـه بباب الحزم والسياسة ، بل قد يكون الحزم والسياسة في ما فعل ، على هول ما فعل وفظاعته .

غير ان ما نعده عليه ، ونؤاخذه به ، مما يرجع الى السياسة العامة ، و يتعلق بحياتنا القومية ، هو انه أضعف العصبية العربية ، بتقديمه الموالي على العرب ، وتأميرهم عليهم ، على نحو مافعل العباسيون في بغداد . فكان ذلك زائداً في تفكيك عرى الامة وتخاذلها ، وفي بعد الشقة بين ابنائها ، وقيام بعضهم على بعض ، وفي ضياع الرهبة من القلوب ، امر اذا حال سلطانه دون ظهوره في ايامه ، فقد كان ضرره بعد ذلك خطيراً .

غرسية ملك البسكنس (البسكة) وصاحب بميلونة فهزمهم الناصر ووطيء بلادهم وخربها وفتح حصونهم وهدمها وردد الغزو بعد ذلك في بلد غرسية الى انهلاك اردون وولي بعده ابنه غرويلة سنة ٣١٣ .

(١) وفي دائرة المعارف الجزء الثالث ص ٤٠ وفي ما مر معنا من كلام ابن خلدون احمد بن عبده .

وفاته وولايته : توفي عبد الرحمن سنة ٣٥٠ (٩٦١) فكانت ولايته خمسين سنة قمرية .

الحكم : انتهى اليه الامر بعد ابيه عبد الرحمن الناصر ، فمهد الامور على السنة التي كان استنها ابوه، من عقد المعاهدات مع جيرانه ملوك الاسبان . ذلك بعد ان حارب بعضهم ، ونكث البعض الآخر عهده الذي كان عقده مع ابيه . فظهر عليهم ، ودفع عاديتهم ، واوغل في بلادهم ، فاحتل بعضها . وشرط عليهم في المعاهدات التي عقدها معهم شروطاً كانت في مصلحة المسلمين ، فنزلوا على حكمه ، وقبلوا بها وأخلدوا الى السكينة . فأمن جانبهم .

وظهر النورمان او المجوس على لغة العرب في مياه اشبونة ، وعاث قرصانهم فساداً في الثغور ، فقاتلهم الاهلون الى ان وصل الاسطول الذي أرسله الحكم ففررا وأخلوا البلاد . ثم التفت الى المغرب الأقصى وكان صاحبه الحسن بن كنون — آخر ملوك الادارسة — قد نكث عهد قومه مع الناصر وحالف العبيديين ، فلما عاد جوهر قائد العبيديين من افريقية الى مصر ، عاد الحسن فحالف الحكم . ثم ثار بلكين بن زيري امير صنهاجة وزحف الى المغرب فدخل الحسن في طاعته ونبذ طاعة الأمويين مرة ثانية . فلما رجع بلكين الى افريقية ارسل الحكم الى الحسن جيشاً ضخماً عبر البحر من الجزيرة الخضراء الى سبتة ، فتغلب على الحسن وجيء به الى قرطبة . وسار الجيش الى فاس فامتلكها وأضافها الى بني أمية وقطع دعوة العلويين من تلك البلاد .

اخلاق الحكم : كان الحكم عالماً عارفاً بالتاريخ والشريعة ، حتى قيل عنه انه اعلم بني أمية . جاب له ابوه مشايخ العلماء وجلبهم في الشرق والغرب ، فتخرج بهم وكانت له تعليقات بخطه على كثير من كتبه وينسب اليه شعر رائق :

وفاته وخلافته : توفي الحكم ثاني صفر سنة ٣٦٦ فكانت خلافته ست عشرة سنة .

* * *

هشام المؤيد بالله : ولي بعد ابيه الحكم، وسنه عشرة اعوام وأشهر . فكان له من الخلافة اسمها ولقبها ، والامر كله لابي عامر محمد بن عبدالله بن ابي عامر، مؤسس الحجابة العامرية[1] بل دولة بني عامر كما كانوا يسمونها .

دولة بني عامر : مبدأ امر ابي عامر: انه ورد شاباً من طُرُش (تور كس) من الجزيرة الخضراء الى قرطبة . فطلب العلم والادب وسمع الحديث وتميز في ذلك . وكانت له همة يحدث بها نفسه بادراك معالي الامور ، ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة ، الى ان تعلق بوكالة السيدة صبح[2] ام هشام المؤيد بن الحكم المستنصر والنظر في اموالها وضياعها ، فزاد امره في الترقي معها ، الى ان رغبت الى الخليفة في توليته القضاء فولاه ، فظهرت نجابته ، فترقى الى ولاية الزكاة والمواريث باشبيلية . فلما توفي الحكم ، وهشام صغير ، وخيف الاضطراب ، ضمن ابو عامر لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها . وكان ابوعامر قوي النفس . وساعدته المقادير ، وأمدته المرأة بالاموال، فاستمال العساكر اليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحب التدبير ، والمتغلب على الامور . وحجب هشاماً ، وتلقب بالمنصور ، وامر بالدعاء باسمه على المنابر عقب اسم الخليفة، ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فحطهم عن منازلهم ، وقتل بعضهم ببعض . كل ذلك عن امر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم ، لا مستثنياً أموياً ولا ولداً ، بدأ بالمغيرة بن عبد الرحمن الناصر اخي الحكم فقتله ليلة البيعة لهشام ، بمالأة الحاجب جعفر ، وقاتل حماه غالباً مولى الحكم فقتله . وحمل جعفراً على نكبة الصقالبة الخصيان فنكبهم وشردهم ، وكانوا ثمانمائة او يزيدون . ثم قبض على جعفر نفسه فسجنه حتى مات ، وقتل ابنه عبدالله بن ابي عامر . ومضى يقتل من يخشى منهم من بني أمية وزعماء القبائل ، يُظهر انه يفعل ذلك حماية للمؤيد وشفقة عليه . حتى افنى من

(١) لما قسم بنو أمية خطط الوزارة بالاندلس جعلوا بين الوزراء والخليفة رسولاً يتردد بينهم في المهام سموه باسم الحاجب فارتفع عن الوزراء بمباشرته للسلطان في كل وقت وعلا مجلسه عن مجالسهم وكان يحجب السلطان عن الخاصة والعامة . فأشبهت خطته رئاسة الوزارة . (٢) وهي شعرانية نافارية .

يصلح منهم للولاية والرآسة ، ثم شرد باقيهم عن البلاد ، وجردهم من الأموال، فدانت له أقطار الاندلس كلها وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شيء منها ايام حياته لعظم هيبته ، وفرط سياسته . واستوزر جماعة من اهل العلم والأدب . ولم يزل ابو عامر طول ايام مملكته مواصلاً لغزو الروم (الاسبان) مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء . و بلغ من حبه للغزو انه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع الى مقره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره الى الجهاد فتتبعه عساكره وتلحق به ، اولاً فاولاً . فلا يصل الى اوائل بلاد الروم الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر . غزا في ايام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ، وفتح فتوحاً كثيراً ، ووصل الى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله ، وملأ الاندلس غنائم وسبياً من بنات الروم واولادهم ونسائهم .

وفي ايامه تغالى الناس بالاندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور ، وذلك لرخص اثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا . ولولا ذلك لم يتزوج احد حرة .

قال المراكشي صاحب تاريخ الاندلس الذي نقلنا عنه معظم هذا الفصل : بلغني انه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساو اكثر من عشرين ديناراً عامرياً .

كانت وفاة ابي عامر المنصور باقصى ثغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة سالم سنة ٣٩٣ بعد ان ملأ الاندلس بحديث انتصاراته وفتوحاته ، في الجنوب والشمال ، واغنى البلاد بالغنائم والاموال .

وابو عامر من اجل ملوك الاسلام عظمة وشأناً ، واكبرهم فتحاً واعظمهم سلطاناً ، استوثق له ملك المغرب وملك العدوتين ، وكان من امكر رجال السياسة واشدهم استبداداً على عدل في الرعية ، ونصفة في الاحكام . وقد طالت امارته نحواً من سبع وعشرين سنة . وخلفه ولده عبد الملك المظفر ابو مروان وكان مقتفياً اثر ابيه في الجهاد تحرش ملوك الاسبان بحدود المسلمين لاول ولايته ، فأوقع بهم بما مكن من هيبته في قلوبهم ، فاخلدوا الى السلم . فكانت ايام المظفر على قصرها اعياداً في الخصب والامان . توفي سنة ٣٩٨ قيل مسموماً سمه اخوه عبد الرحمن فكانت ولايته سبع سنين . فخلفه اخوه عبد الرحمن هذا

وتلقب بالناصر لدين الله . ولم يقف به الامر عند الحجر على الخليفة ، والاستبداد بالسلطان، كما فعل ابوه ثم اخوه ، بل حاول ان يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة ومظاهرها . فاكره هشاماً ان يعهد اليه في الخلافة من بعده ، واستكتبه عهداً موثقاً بانه لما « لم يجد عنه مذهباً ، ولا الى غيره معدلا ، خرج اليه من تدبير الامور في حياته ، وفوض اليه الخلافة بعد وفاته ، طائعاً مختاراً مجتهداً ، وامضى امير المؤمنين هذا واجازه وانفذه ، ولم يشترط فيه ثُنْيَا ولا خيارا ، واعطى على الوفاء به ، في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه (صلي) وذمة نفسه ، ان لا يبدل ولا يغير ولا يحول ، واشهد على ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيداً . واشهد من اوقع اسمه في هذا وهو جائز الامر ما في القول والفعل ، بمحضر من ولي عهده المأمون ابي المظفر بن المنصور وفقه الله تعالى وقيد له ماقلده ، والزمه نفسه مافي الذمة . وذلك في شهر ربيع الاول سنة ثماني وتسعين وثلاثمائة . »

هذا ما كتبه صاحب الحق الموروث في الخلافة الاموية الاندلسية طائعاً ... مختاراً ... ومجتهداً ! ؟ وقد علمتنا الحرب وما عقبها قيمة الطواعية والاختيار والاجتهاد في ما يكتبه المستضعفون والمعميون والمرتزقة من المضابط في مثل هذه الحوائق .

عظمت هذه البيعة على الناس عامة ، وانصار الامويين خاصة ، فكانت صفقة هائلة دفع فيها ولي العهد المأمون ، ابو المظفر بن المنصور ، حياته ثمناً لها .

* * *

الفوضى وخلفاء الفتنة : وكان امراً مقدوراً ان يتفق الناس على خلع هشام المؤيد ، بعد ان رأوا من حاله ما رأوا ، وبعد ان أصبح ضحكة الخلفاء . فبايعوا لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وذلك في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ (١٠٠٩).

محمد بن هشام : قام محمد هذا بقرطبة فالتف حواليه الغاضبون من قريش عامة ، والأمويين خاصة . والعرب ولاسيا اليمانية . اولئك ، لما عظم عليهم من استبداد البربر بالامر منذ ايام الناصر الى آخر دولة العامريين ، واليمنية لما ركب اكتافهم من تحكم القيسية الذي طال عليهم امده .

تلقب محمد بالمهدي ، واخذ المؤيد فحبسه ، وبلغت انباء هذه الفتنة عبد الرحمن

العامري وكان بجليقية غازياً ، فقفل راجعاً الى قرطبة ، فلما قرب منها انفض عنه جمعه ، وخذله حتى البربر : انصار الدولة العامرية ، لسوء تدبيره ، ووثب به الثائرون فاحتزوا رأسه وحملوه الى المهدي . وكان عبد الرحمن قد قتل اباه هشاماً ، فانقرضت به دولة العامريين سنة ٣٩٩ .

واشتد المهدي على البربر انتقاماً منهم ، وتقرباً الى العرب فأبعدهم عنه ، وامر بهم ان لا يركبوا ولا يحملوا سلاحاً ، وصادرهم وثارت بهم الدهماء فانتهبت دورهم .

فأئتمر البربر بينهم بخلع المهدي ومبايعة هشام بن سليمان الناصر ، ففشا الامر ، وتغلب عليهم المهدي فأزعجهم عن قرطبة وجاء بصاحبهم هشام بن سليمان ، واخيه ابي بكر ، وغيرهما من الزعماء ، فضرب اعناقهم .

واجتمع البربر بظاهر قرطبة ، ولحق بهم سليمان بن الحكم ابن اخي هشام المقتول ، فبايعه اصحاب عمه ، ولقبوه بالمستعين . ونهض به اصحابه الى طليطلة ، واستجاشوا بصاحب قشتالة فكان الى اجابتهم — على جاري العادة — سريعاً ، أمدهم بالجند والمال ، فسار سليمان الى قرطبة في جمع من البربر والنصارى ، فانكسر المهدي بعد معركة قتل فيها من رجاله خلق كثير ، فيهم الأئمة والعلماء ، وفر من قرطبة فدخلها سليمان وذلك من شوال سنة ٣٣٩ نفسها .

فكانت خلافة محمد المهدي بضعة اشهر .

سليمان بن الحكم : ولي الامر بعد ان تغلب على المهدي .

اما المهدي فلحق بطليطلة واستجاش في نوبته بسانجة اوشانجة (سانكه الثالث ملك نوارة وقسطيلة) فأنجده . فكر المهدي راجعاً الى قرطبة فكشف عنها المستعين . ففر هذا باصحابه ودخل المهدي قرطبة وجدد البيعة لنفسه . وذلك في منتصف شوال من السنة المذكورة .

فكانت خلافة المستعين هذه ، اياماً معدودة من شهر شوال .

محمد بن هشام : فلما عادت هذه الخلافة الحائرة الى محمد المهدي مرة ثانية ، خرج في جيشه وجيش الاسبانيول — الذي أمده به صاحب قشتيلية — لقتال المستعين ،

وكان المستعين قد لحق بشاطبة وتفرق اصحابه في البلاد يعيثون فيها فساداً . وانكسر المهدي وعاد الى قرطبة مدحوراً ولحق به المستعين لحاصرها .

هشام بن الحكم : واشتد الامر على المهدي فرأى ان يعيد هشاماً المؤيد بل المقيد ، صاحب العامري ابن ، ومحجبن المهدي نفسه ، وهو الذي كان قبل الفتن . وقام المهدي في حجابته تسكيناً للثورة ، وذلك في ذي الحجة سنة ٣٩٩ . فلم يفل ذلك من غرب الفتنة ، ولا رفع الحصار عن قرطبة . فوثب الصقالبة على المهدي صاحب الحجابة بعد الخلافة فقتلوه دفعاً للفتن . وذلك يوم الاحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠ .

وسعى المؤيد في ان يصرف اليه البربر عن المستعين ، فلم يوفق . وتعهد المستعين لالفونس الخامس ان يسلمه مافتحه الحاجب المنصور من حصون قسطيلة ، ان هو أعانه على خلع المؤيد . وبلغ الخبر المؤيد فرأى ان يدخل مع المستعين ابن عم ابيه في المناقصة . فتعهد لالفونس ان ينزل له عن هذه الحصون فوراً ان هو لم يجد المستعين . ورأى الفونس في مناقصة المؤيد صفقة اربح من صفقة المستعين ، هذا يسلمه الحصون تسليماً معلقاً ، وهو يحتاج الى قتال يقاتله معه ، والمؤيد يسلمها ناجزة من غير قتال ، فرغب في الثانية عن الاولى ، وأجاب المؤيد الى طلبه ، وتسلم الحصون .

وعاد المستعين يضيق على قرطبة الحصار . ثم اقتحم الزهراء ، ومازال بقرطبة يراوحها القتال ويغاديها ، وينأى احياناً عنها ثم يدانيها ، حتى استولى عليها بعد معارك طويلة ، وقتال اتصل الى منتصف شوال سنة ٤٠٣ . كان يكون مرة له ومرة عليه .

سليمان بن الحكم : عاد المستعين الى قرطبة في ذلك التاريخ ، فعادت الخلافة اليه . وكأن الخلافة كانت في الغرب في ذلك العهد ، موقوفة على من يملك قرطبة ، كما كانت في الشرق ، موقوفة في الغالب على من يملك الحرمين . وقبض سليمان على هشام المؤيد واخفاه ثم قتله سراً . واتى البربر اصحاب المستعين من الافاعيل في الزهراء وقرطبة ، ما قضى على شطر كبير من الحضارة والعمران ، وانزلوا انواع المعرة واصناف العذاب بالسكان ، الشيوخ والاطفال والرجال والنسوان . وتفرق البرابرة على الولايات الاندلسية يقتسمونها بينهم ، ويتحكمون فيها في الناس ، ووثب بعض العرب كل منهم في ناحية

استولى عليها ، فكان ذلك مبدأ ملوك الطوائف .

غير ان المستعين تعوّض عن تلك الولايات الضائعة ، والسلطان المضطرب ، لقباً جديداً هو الظافر . اضافه على اسمه الكريم الى لقبه القديم ، يقوّي به ملكه الضئيل . فاصبح سليمان بن الحكم : المستعين الظافر . المستعين ! وبمن ؟ بالفونس عدو وطنه ، و بالبرابرة اعداء قومه . والظافر ! وعلى من ؟ على ابناء عمومته لحمًا ، وعلى ذوي قرابته وقومه ، دمًا عصبيةً .

ولم يطل امره حتى تغلب عليه ابن حمود العلوي وقتله بيده في المحرم من سنة ٤٠٧ هـ ١٠١٦ م .

(لها بقية) عارف النكدي



حول كتاب

من كتب الجاحظ

قد خدم العلامة محمد راغب الطباخ العلوم الاسلامية خدمة كبيرة بنشر كتاب[1] الدلائل والاعتبار للجاحظ اذان كل كتاب من قلم هذا الفيلسوف الشهير يزيد في تقديرنا لترقي العلوم في زمانه وليس قصدي هنا تقريظ الكتاب ولا المؤلف وكانت نسخة من هذا الكتاب في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٥٣٨٣٣٦ وعزم صديقي المستر جيب (Gibb) احد اساتذة المدرسة الشرقية في لندرة على نشرها فأخذ منها نسخة لهذا السبب ولكن لما زار مصر حديثاً اهداها الى العلامة احمد زكي باشا . ولما كانت الطبعة منقولة عن نسخة واحدة أحببت مقابلتها بالنسخة اللندنية وهذا ما وجدته : اولاً ان للنسخة اللندنية مقدمة ليست في المطبوعة وهي ايضاً اقل حجماً بكثير وتنتهي في وسط المطبوعة تقريباً ومع هذا ان اكثر العبارات مقتضبة ولكن لا شك انها الكتاب نفسه فرأيي ان الناسخ اقتصر على ماظنه مؤدياً للمراد . ورجائي انه سيكون نافعاً أن انشر ما نقص من اول الكتاب ولقد صححته على حسب الطاقة لان التحريف كثير من الكاتب اليماني الذي كتب النسخة اللندنية ولاجل ان يرى الاختلاف بين النسختين في الألفاظ نقلت ايضاً قسماً من اول النسخة المطبوعة للمقابلة بينهما مع الاشارة في ذيل الصفحات الى تصحيح ما أمكن تصحيحه .

ف . كرانكو

وهذا هو الفصل المنقول من اول النسخة اللندنية :

« كتاب العبر والاعتبار تأليف ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ »

بسم الله الرحمن الرحيم

والسلام على عباده الذين اصطفى . قال ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ :

(١) المجمع : راجع تقريظ هذا الكتاب في مجلة المجمع من المجلد الثامن ص ٤٤٠ .

الحمد لله الذي سمك السماء بقدرته ، وجعل الارض مهاداً بحكمته ، ونظم ما بينهما ببراهين بادلة(١) خالق الامور المتعادية ، والآلات المتباينة ، والجواهر والاعراض المختلفات والمتفقات من نور وظلمة وذي سكون وحركة وانس ووحشة وخفاء(٢) ورقة وضعف وقوة ونوم ويقظة وضحك وبكاء وغضب ورضاء الذي أخفى النفوس في الأجسام والطفها فيما ترى ثم دبرها بما يحسن (٣) ويشاهد والذوق (٤) واللمس والشم ، وأيدها بالأيدي والأرجل الحوامل العوامل ، ومكنها من المعرفة والحجة وجعل ما وهب لها من ذلك حجة لها ان شكرت ، وحجة عليها ان كفرت ، وشاهداً بتبصيرها ان قصرت . والحمد لله الاحد الواحد الكريم الماجد ، الذي لا تشتمل عليه المشاعر ، ولا تحجبه السواتر ولا تدركه الخواطر ، الاول لا بتأويل عدد ، الآخر لا بمعني غاية بعد الشاهد من غير مماسة ، الباين لا عن مسافة الظاهر لا للابصار ، والباطن لا من غير طول الذي دل على نفسه بآيات قدرته ، الموجود في بريته ، واستشهد على لطفه بفعله ، وجعل الحجاب بينه وبين خلقه ، ضعفهم عن ادراك قدرته ، فذاته مجهولة الا له وآياته معلومة بين خلقه معروفة لما وهب لهم من تبصرة هدايته ، ليس سواه إله ولا غيره رب معبود الذي حجب الابصار عن رؤيته ، وليس للعقول سبيل الى معرفته ، وأخرس الألسن عن تحديد كنه صفته ، فلا أعين المؤمنين تدركه ، ولا أنفس الكافرين تجحده وتنكره .

والحمد لله الذي خلق فأحسن الخلقة ، ونظر فأتقن النظرة ، وفتق الافهام للمعرفة ، وذلل الجوارح للطاعة ، وهدى الى طريق النجاة والسلامة ، وزجر عن سبيل الضلالة والجهالة ، ثم مدّ لخلقه حبل الامهال ، وبسط لهم في النظرة ووعدهم المغفرة والإقالة ، حتى ارعوى مرعو واهتدى(٥) مهتد بعد التحير والتهور ، تتميماً للنعمة وزيادة في الاعذار لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما . فنعوذ بالله الكريم من غلبة الشقوة ، ونسأل الله العظيم الزيادة من البصيرة والمنفعة بالعلم وان لا يجعل شيئاً منه وبالاً في الآخرة وهو على كل شيء قدير . اما بعد فانه ليس باهل البر والتقى

(١) كذا ولعلها وادلة . (٢) لعل صوابه وجفاء . (٣) لعل الصواب يحس . (٤) لعل صوابه بالذوق . (٥) بالاصل : اتهدي .

ولا بذي الغباوة والرّدى غناء عن التواعظ والدلالة على امكنة الخير والتواصي والتناهي عن الشر لما في ذلك من التذكرة والتبصرة والتأديب والتهذيب والبركة والمنفعة ولو كان بين عدو الله ابليس الضامن احتناك الذرية الضعيفة الا قليلاً وبين قلوب العباد اغلاق سوى الذكر لله تعالى لوجب طلب مفاتيحها علينا بتحمل المشاق وركوب الاخطار والتغلغل الى خفي اماكنها لنأمن كيد عدونا الذي يجري مجاري الدم منا و يرانا من حيث لا نراه وله تسلط على سويداء القلوب وحرص على استزلالنا لنعطب فأوجب الاعداء عباد الله بان يحذر من ليس يحرس من كيده حارس سوى التعوّذ بذي الجلال والاكرام والفزع الى تلاوة كتبه وترديد اسمائه الحسنى والتعلق بذكره واللهج والعزم بالالتجاء اليه فليكن بالك ايها الانسان المخلوق من ضعف وطين وماء مهين معتنياً بذكر الله تعالى ومنوطاً بالفزع اليه ومسألة النجاة من كيد عدوك وعدوّه والسلامة من خيله ورجله ومكر جنوده فان لهم أفواهاً والسنة تلتقم القلوب والاسماع وصوراً مختلفة الفعل لا تتراءى للأبصار ومداخل لطيفة تصل الى النفوس بمراده من الاضلال والاستزلال واعجب واعجب ايها الانسان ممن جهل معرفة الواحد الخالق الرحيم الرحمن وقد أراك الآيات والبينات في الآفاق وفي نفسه والنماء والنقص في أحواله وفي أهله وجسمه واوجه الامور التي تتم بها منافعه والمآرب التي اليها تتناهى مصالحه وكيف تهيأ له قبل خلقه مفروغاً منها قبل خروجه الى الدنيا متممة مكملة وهو في ظلمة الرحم مصنوعة منظومة على أتم صفة قبل تكوينه وانه لم يمهدها لنفسه ولا ادعى ابوه تمهيدها ولا أمه ولا احد من أبناء جنسه ثم ليس منها على كثرتها شيء الا وهو مركب تركيباً لم تكن المصلحة تتناهى الى ما دونه ولا تتجاوز مافوقه ولا ترغب من شيء منه وان الطبائع جميعها لتشهد انها لم تصنع ذلك وتعترف بالعجز عنه . ولو ادعت خلاف ذلك لانقطعت اسباب الحقيقة عن دعواها وشهد بالمحال عليها عجزها واثر الضرورة المحيط بها .

قال ابو عثمان ونحن ذاكرون اشياء من شواهد آثار الصانع في صنعته ومنبهون على أسرار قد أودعها ما يشاهده من فطرته تضطر الى معرفته وتشهد بوحدانيته وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته وواصفون أعلاماً وآيات و براهين واضحة شهدت بها النحائز

وتهتف بذكرها الغرائز وتعرفها الطبائع ولا ينكرها (١) ولا تدفعها العقول بمقدار وسع الطاقة ومبلغ الجهد وما وهب الله لنا من العلم وما توفيقنا الا بالله عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم ليزول الشكوك عن قلوب المرتابين ويتجدد نور اليقين في صدور المؤمنين وحسبنا الله ونعم الوكيل ·

وقد ألّف مثل كتابنا هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما أوضحوا معانيه ولا بينوا المشكل منه فمنهم جبريل بن نوح الأنباري لانه صدر كتابه بغير خطبة ولا مقدمة ورتبه ترتيب الفلاسفة وصدره بكلام منغلق ونظمه نظماً غير متسق فكأن لم يألف (٢) وقبله الف في معناه تودرقوس (٣) أسقف طرسوس كتاباً وضعه في زمان بلنسيانوس (٤) عظيم الروم الذي كان ينتسب بالقول بالدهر والعصبية لدين الكفر وكان هذا الملك من اهل التلبيس والتدليس وسمى تودرقوس (٥) كتابه كتاب التدبر ونقله من اخذه عنه من السريانية الى العربية فلم يقع بفساد النقل حيث ينبغي ان يقع من الايضاح والشرح وأفسده بتأول الالسنة وسوء العبارة ·

ومنها كتاب نظمه ثاوريطوس (٦) أسقف قورس كتبه باليونانية ونُقل بعده الى السريانية ثم الى العربية فجرى مجرى الاول المفسود بتداول النقل والعبارات ·

ومنها كتاب ألف في ايام بني أمية نظمه بسوعبخت (٧) مطران فارس وكتبه بالفارسية فاكسبه استغلاقاً · وقد جمعنا في كتابنا هذا محاسن ماوجدنا في هذه الكتب وزيادة بمقدار الطاقة والتوفيق من الله جل ذكره وشرحنا ما نقلنا عن غيرنا وبينا القول فيما زدنا ورتبناه ترتيباً يؤنق السمع ويسر القلب ويبسط السامع ويوجب الحجة على المخالف وما توفيقنا الا بالله ·

(٨) قال ابوعثمان الجاحظ : ان أناساً لما جهلوا الاشياء التي في الصنعة تدل على

---

(١) بالاصل يندكرها · (٢) لعل صوابه يؤلف · (٣) بلا نقط بالاصل ·

(٤) بالاصل : بلسانوس · (٥) لعل الصواب يستينيانوس (Justinianus)

(٦) لعل الصواب ثاوفرسطس (Theuphrastos)· (٧) بالاصل سوعحب كما ترى ·

(٨) من هنا تبتدئ النسخة المطبوعة ·

الصانع سبحانه والاسباب والمعاني التي في الخلقة وقصروا عن تأمل الحكمة لاشتغالهم بلذات نفوسهم وشهواتهم وما آثروا من امر الدنيا خرجوا الى الجحود والانكار والبهت والتكذيب فأنكروا خالق الاشياء وزعموا انها لم تزل هكذا موجودة وانها على الاهمال لا على القصد والعمد والتدبير والتقدير فكانوا فيما يشاؤون من الأدلة و يرون من العالم بمنزلة من دخل داراً وهو اعمى ليس معه قائد يخبره بما فيها و يصف له حسن فرشها واتقان بنائها وما قد أعد فيها من المآكل والمشارب والملابس والمنافع والمصالح فأقبل يسعى وحده ويمشي على وجهه فمثر بشيء في طريقه فدميت قدمه فظن ان ذلك الشيء الذي عثر به مما وضع في غير حقه وهو جاهل بالمعنى الذي وضع ذلك الشيء قبل مروره وضجر وذم الدار وعاب بانيها وانكر حكمته وتسخط فعله الخ .

وفي آخر النسخة اللندنية : وافق الفراغ من تحصيل هذا الكتاب يوم الثلوث (١) سابع شهر شعبان سنة ١٢٥٨ .



(١) كذا في الاصل .

السعادة والاسعاد

هو مخطوط في الاخلاق وقع لي في جملة ما يعرض على المجمع العلمي من الاسفار فرأيته في ٤٤٦ صفحة صغيرة لاتكون واحدتها اكثر من ١٨ سطراً والسطر الواحد بين ٧و٩ كلمات الا ان في هذه المخطوطة نقصاً من اولها ومن آخرها وعند الصفحة ١٨٠ تم الجزء الاول . ومن العبارة المذكورة هناك عرفنا اسم الكتاب والعبارة هكذا « تم النصف الاول من السعادة والاسعاد ولله الحمد على الهداية والارشاد » . وجاء في الصفحة التالية « طالع فيه واحتوى على بعض معانيه أفقر عباد الله تعالى الفقير عثمان بن المرحوم ... محمد السكري غفر الله له .... » . وتغلب الصحة على الرسم في هذا المخطوط والغالب انه يرجع عهد كتابته الى القرن السابع او الثامن وهو بخط مشرق مقروء . وتجد ثلاث نقط على حرف السين من فوق ومن تحت وبعض الصفحات لا تخلو من خرم عولج بالصاق ورق عليه .

لم نهتد الى عصر المؤلف ولكن رأيناه يقول قال ابوالحسن وهو كنية المؤلف ، والمؤلف هو ابوالحسن بن ابي ذر، ويستشهد مرات بحكيم الاسلام ولا نعرف من يعني بحكيم الاسلام . و يستشهد بغريغورس فان كان غريغوريوس هو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبري صاحب تاريخ مختصر الدول المشهور المتوفى سنة ٦٨٥هـ ١٢٨٦م فيكون الكتاب مما ألف أواخر القرن السابع او الثامن للهجرة . ولغريغوريوس هذا كتاب في الشرح المدني والفلسفة وكان يعرف اليونانية فيكون نقل غريغوريوس عن الاصل اليوناني او عن ترجمات أخرى كتبت قبل عهده .

وقد اكثر المؤلف من الاستشهاد باقوال أفلاطن وارسطو وغيرهما من فلاسفة يونان في الاخلاق حتى ليظن ان المؤلف يوناني او من اتباع اليونان في مذهبه . ويقل جداً الاستشهاد في كلامه باقوال السلف والآيات والاحاديث ولكنها تذكر كل مرة بالصيغة التي يذكرها بها المسلمون في العادة ولكنه قد يقدم عليها أقوال حكماء يونان كأنه يأتي بها بالعرض .

***

الكتاب فصول وأبواب كثيرة بدأ — بعد هذا الخرم الكبير من الاول — بتقسيم السعادة الى انسية وعقلية ومما قاله في هذا الفصل : « من قول متقدمي الفلاسفة قال أرسطوطيلس قال قوم بان السعادة هي اللذة وظن آخرون انها اليسار وظن آخرون انها الكرامة قال وكان بعضهم ينتقل في ذاته من شيء الى شيء فكان يرى اذا مرض ان السعادة هي الصحة وكان يرى اذا افتقر انها اليسار . قال وقال بعضهم ان التمام هو الراحة وقال بعضهم السعادة حسن الفعال مع الفضيلة الى منتهى العمر فتنج (؟) ماقاله هؤلاء في السعادة . قال ارسطوطيلس الذي قاله في السعادة من حكينا قوله ليس بصواب ومما يتبين ان السعادة ليست اللذة ان الكثير من اللذات ضارة وقبيحة والسعادة اقصى المختارات . قال ومما يتبين انها ليست باليسار ولا بالكرامة ان اليسار والكرامة من الخيرات الخارجة والخير الذي هو اولى بمعنى الخير هو الذي يكون في النفس لا خارجاً منها قال واقول السعادة مطلوبة لذاتها واما خير الفعال وكل فضيلة فانا انما نريدها من اجل السعادة قال وكذلك اليسار والكرامة انما نريدهما من اجل السعادة . قال ومحال ان يكون الحرص والتعب من اجل الراحة قال وأقول ليس الفعل من اجل الراحة لكن الراحة من اجل الفعل اذ كنا لانقدر على ادامة الفعل لما يلحقنا من التعب . قال وأنواع التعب كثيرة وهي المضرة بها اكثر من المنفعة ومما يتبين انه ليس الغرض اللذة انه لو كان الغرض اللذة لم يجز ان يضطرهم الى الحزن بسببها وانه ليست من لذة بدنية الا والحزن يتقدمها وكثيراً ما يتعقبها .

« ماقاله أفلاطن في السعادة الأدبي(؟) وانها بم تقوم . قال افلاطن سعادة الانسان في حياته هي ان تكون حياته فاضلة قال وذلك بان يحيا مدة ما تكون له من الحياة على أحسن الأحوال . قال وان السعادة لا تحصل للانسان الا بان يكون سعيداً ببدنه وسعيداً بنفسه وسعيداً بذات يده . قال وذلك بان تصير له الخيرات البدنية والخيرات النفسية والخيرات الخارجة من النفس ومن البدن . قال ولن يستتم له ذلك الا بالخلاص من الشرار . قال والشر شر لك غريب واهلي والاهلي هو الذي ينبعث من داخل والغريب هو الذي يرد عليه من خارج قال ونقول اول المرقاة الى الخير مفارقة الشر وأقبح الظلم ظلم المرء لنفسه وذلك بان يحرمها الخير ويوقعها في الشر » .

وعلى هذا المنحى نقل بعد ذلك ما قاله ارسطوطيلس في السعادة الانسية في صفحات غير قليلة ثم جاء « القول في علاج الآفات المؤدية الى الشقاء المانعة من السعادة » وهنا بدت شخصية المؤلف فقال في هذا الباب : « وأقول العلاج من العلل انما يكون برفع الاسباب المولدة للعلل وكل شيء انما يرتفع و يزول بضده فمن الواجب ان يعلم الانسان الاسباب المولدة للشقاء وان يعلم الاسباب التي يقابل كل سبب من أسباب الشقاء ليكون علاج كل سبب بما يقابله و يزيله . وأقول الاسباب التي ذكرناها وان كانت كثيرة فانها تنضم الى سببين الجهل والجور وبيان ذلك ان احد الاسباب تسلط النفس الشهوانية على النفس الناطقة وتسلط الغضبية على النفس الناطقة ، واي هاتين النفسين تولت السياسة وتدبير البدن كان مجراه على الجهل الصرف لانه ليس لواحد منهما بصيرة ولا معرفة ، واحد الاسباب اعتياد العادات الفاسدة ، ومن البين ان ذلك انما يكون من الجهل والجور . واحد الاسباب الأماني وهي تمني ان لا يضرّ الضار ولا يشين القبيح انما يكون من الجهل ، وقد قيل نعوذ بالله من طمع في غير مطمع . واحد الاسباب العمل على الخاطر الذي لم يصححه الفكر وهل يكون ماهو هكذا الا الجهل . واحد الاسباب التدبير الرديء وهذا ايضاً بين انه يكون من الجهل وكذلك التربية الرديئة فانها انما تكون من التدبير الرديء واما البنية الرديئة فانها لا تؤدي عندي الى الشقاء وذلك انه ليس الشقاء رداءة البنية كما انه ليس السعادة جودة البنية لكن الشقاء ان لا يعيش على قدر حالة الحياة التي هي أفضل لكن الحياة التي هي أردى اه . »

وهكذا اخذ يوالي براهينه في السعادة ثم اخذ ينقل عن ارسطو في الجميل والقبيح ونقل قصة النعمان بن المنذر المشهورة في يومي نعيمه وبؤسه وعنى للخير والشر وأورد الأمثلة . وعنى لاقسام الاشياء وفيه بيان الخير المطلق والشر المطلق وبيان ماليس بخير ولا شر . وذكر أقسام الخيرات وحدّ الخير وبين الصناعة والمذهب والبدعة والهوى وما الى ذلك من الخير والشر والنافع واللذيذ والساذج والسليم والاشياء اللذيذة والمؤذية وذكر القول في الحواس وهل يتفاوت حالها في الاذى واللذة والوحشة والالتذاذ والتأذي والانفعال النفساني والانفعال الجسماني وأبان الفرق بين الانفعال وبين الفعل والفرق بين النظر وبين الفكر وأورد أنواع اللذة وأبان ان للانسان لذة يختص بها وانها

انما هي لذة المعرفة وبيان العلة في انه لمَ صار للانسان لذات مختلفة . وجمع في هذا الفصل بين ماقاله أفلاطن وأرسطوطيلس . ثم ذكر العلة في ميل الناس الى اللذات الجسمية وفي هربهم من اللذات النطقية وبيان ان لذة المعرفة ألذ من سائر اللذات كلها وبيان انه ليس كل لذة بخير وانه غير جائز ان نقول بان اللذات ليست بخير على الاطلاق .

وتفنن على هذا المثال في التبويب لموضوعاته فذكر القول في ماهية اللذة والاذى ومناقضات الفلاسفة وأورد فصولاً في السعادة القصوى وكيف تكتسب من قول أفلاطن وكذلك السعادة العقلية في رأي ارسطوطيلس وهل يجوز ان تكتسب السعادة القصوى من غير ان تكتسب السعادة الأدنى والآفات المانعة من السعادة القصوى ومن استتمامها وعلاجها وآفاتها . وختم هذه الفصول بقوله : « الحمد لله الذي خلقنا بفضله لفضله ، وبرحمته لرحمته ، ثم هدانا لما خلقنا له ، وعرّفنا ما ينفعنا في السير اليه ويعيننا عليه ، ومايثبطنا عنه ويصدنا منه ، لنستعين بما ينفعنا في السلوك الى ماخلقنا له ونتمسك به ، ونجتنب مايصدنا عنه ونزايله ، حمد ناهض بالنية الى دوامه ، وأصلي على النبي محمد وآله . قال ابوالحسن : ان كتابنا هذا انما هو القسم الثاني من الكتاب الذي سميناه السعادة والاسعاد في السيرة الانسانية ونريد ان نبين في هذا القسم العوارض التي تعرض للانسان في حياته ولا ينفك منها في وقت وان راقبه وحدده ونقول فيها عارضة عارضة ونتبين المحمودة منها والمذمومة ونبين وجه علاج الذميمة منها ونبتدي ان شاء الله من القول في الفضيلة انها ما هي و بالله نعتضد في كل امورنا وعليه نتوكل فانه لا حول لنا ولا قوة الا به . ونصلي ونسلم على محمد وآله وسلم » (ص٦٣) .

لا جرم انه استبان بما تقدم ان المؤلف نفسه هو ابوالحسن وان الناقص من اول الكتاب عشرات من الاوراق لان الباقي نحو ثلاثمائة وثمانين صفحة هذا بقطع النظر عن الاوراق المتممة للجزء الثاني . اما ان نجزم بمن هو ابوالحسن فالظن لا يغني من الحق شيئاً . فقد ذكر ابن القفطي وابن ابي أصيبعة كثيراً من مترجميهما بهذا اللقب ومنهم من كانوا من نحلة الصابئة وكان لبعضهم اشتغال بالفلسفة . ولعل بعض الباحثين ممن تتسع أوقاتهم يحققون في هذا الشأن و يهدوننا الى الصواب في معرفة المؤلف الحقيقي .

تكلم المؤلف في الجزء الثاني من كتابه على الفضيلة وأقسامها والفضيلة الخلقية وعلى

الرذيلة وقال ان الفضائل والرذائل مكتسبة نقلاً عن ارسطوطيلس · وقال في فصل آخر ان الفضائل والرذائل ليست لنا بالطبع ولكنها فينا بالتطبع وابان كيف تكتسب الفضائل والرذائل وان الرذائل التي لا يمكن الاقلاع عنها مكتسبة هي ام غير مكتسبة وهنا عقد فصولاً في العفة وفي الفرق بين المتأدب وذي الفضيلة الكاملة كله نقله عن الفلاسفة ومن فصوله في هذه الاماكن « التماس الراحة بالراحة يذهب بالراحة و يورث النصب » « في الحرية » « في المتلاف » « في النذالة » « في ان الغني شرير وخسيس وشقي » « في ان الحريص ليس بغني وان كثر ماله » « في الرفيع الهمة » « المتبذخ » « محبة الكرامة » « المتصلف وهو المتكبر » « المعجب » « الوضيع » « في ان اهل الحكمة يكونون مهانين والعلة في ذلك » وبدأ هذا الفصل بقوله : « قال أفلاطن ان اهل الحكمة يكونون ممقوتين وذلك من اجل انهم لا يكونون نفاعين قال وليست العلة انفسهم بل اولئك الذين لا يستعملونهم فان الحاجة لاولئك الى اهل الحكمة فاذا لم يأتوهم المحتاجون لم يصلح لهؤلاء ان يذهبوا الى أبوابهم » ·

ومن الأبواب التي فتحها بعدُ « الحياء » « القحة وهي الخلاعة » « الشجاعة العامة » « الشجاعة الخاصة » « النجدة » « الاشياء المفزعة » « الجبن » « التقحم » « الهم » « وجه العلاج في إزالة الهم » « الحسد » « الشماتة » « في الفرق بين الغضب والهم » « في الجنايات التي يجب ان يخف فيها الغضب » « الفرق بين التأديب وبين الاخذ بالثار » « الحلم » « البغضة » « الحذر من العدو » · وفي هذه الفصول نقل أقوال الحكماء من اليونانيين · وعنون لفصل « في المحبة من كلامنا » : المحبة انفعال باللذة من المحبوب ونزاع الى ان يتصل انفعاله وتخوف من القطع وشغف بالمحبوب حتى لا تريد بدلاً عنه ، والشغف والنزاع والتخوف انفعالات وبعضها لذة وبعضها تأذي وبعضها ممتزج فالحب كما قيل حلاوة ومرارة وقال الشاعر :

الحب منه حلاوة ومرارة سائل بذلك من تطعّم اوذُق

وأقول الانفعال قد يكون بالحس وذلك يقع بالشاهد وقد يكون بالتخيل وذلك يكون في الغائب ولان التخيل نوع من الحس فلا بد من ان يكون المحسوس حاضراً للحاس حتى يفعل فيه · وأقول حضور المحسوس لحاسة التخيل انما هو بالذكر · وأقول

والمذكور شاهد التخيل وفاعل والزائل عن الذكر غائب وكذلك الزائل عن الفكر والفرق ان الزائل عن الذكر نسيان والزائل عن الفكر غفلة » .

وبعد هذا ذكر فصولاً في أقسام المحبّات وفي تعريف المحبة نقلاً عمن قالوا فيها وذكر حد الصديق والفرق بين المحبة والصداقة وان المحبة ضرورية في الحياة وان اكثر المحبات طبيعية نقلاً عن ارسطوطيلس وأتى على أنواع المحبـات وعلى لواحق المحبـات الذاتية وخواصها ولواحقها العرضية وهل يكره للفاضل ان يصير صديقه زائداً عليه في الفضل وفي السعيد هل يحتاج الى اصدقاء وفي فواعل الصداقة . كل ذلك والكلام فيه منقول عن ارسطوطيلس .

وهناك فصول في ان « المعاشرة ضرورية في الحياة » و « ما يجب للآباء والامهات من حق العشرة » « وبيان المحمود من العشرة والذميم منها » و « في المعاشرة بالهمة والفعل من دون الاختلاط » « المداعبة والراحة » « الكبير النفس » « في أن الملك والعبودية اسمان يثبت كل واحد منهما بصاحبه » . وختم الكتاب في اقسام الرعايا وفضيلة المسوس وأنواع السياسات ومادة الاسعاد وصورتهـا (وهنا نقل عن بعض الحدث من المتفلسفين) و كيفية السياسة وهي الحيلة في اجترار الناس الى طريق السعادة وبيان ان الانسان مفتقر الى معونة الناس له في اكتساب السعادة ومن كيفية السياسة الحيلة في استدامة العامة والترغيب في إقامة العدل وبيان انه ضروري وطباعي في الحياة وعدد أقسامه وقال في كيفية المماثلة وبذلك انتهى النصف الاول من السعادة والاسعاد .

* * *

بدأ المؤلف القسم الثاني من كتابه بفصول غريبة مثل « بماذا يجب ان تكون مجازاة المبتدئ بالاحسان » « في الإفضال ماهو » وتفصيل الجنايات وماتلزم العقوبة فيه وذكر الجور والاسباب الباعثة عليه والاسباب الدالة عليـه وأبان شرف العدل وعلو الانتفاع به وخساسة الجور وعظم المضرة به على طريقة الجدل وهـذا الفصل المطول بالقياس الى غيره من الفصول نقله عن أفلاطن في كتاب السياسة كما نقل اكثر الفصول السالفة عن أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان وقلّ ان ينقل عن الفرس والعرب كما هي عادة من كتبوا في هذا الموضوع من مؤلفي العرب وأبان عن أرسطو ايضاً فضيلة العدل

بصفة حال العادل وهنا ذكر استنتاجات في العدل عن النبي صلى الله عليه واصحابه اوردها في اربع صفحات واستشهد بقصة زاذان الدهقان واعتداء وكيل سعد بن مالك على ارضه وشكواه الى عمر بن الخطاب ونص الكتاب : « بسم الله لرحمن الرحيم . من عمر امير المؤمنين الى سعد بن مالك سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد جاءني زاذان وذكر لي قصته فاذا جاءك كتابي ونظرت فيه فقم قائماً حتى تنصفه من نفسك والا فاقبل اليّ راجلاً . »

ومن فصوله في كيفية السياسة ، والحيلة في اجترار الناس الى الالفة ، والآفة التي تعرض على السياسة ولا يمكن الاحتراز منها والعلة في امكان خلود الابدان وما روي عن الفلاسفة في صفة الله والحقوق التي يجب على الناس اعتقادها واخذ الناس بالتعبد لله . ومن الفصول القول في المزاوجة وفيه ما ينبغي لكل صنف من الرجال ان يتزوج به من النساء . في الايلاد . في عنفوان الشبيبة ما هو . في كيفية المباضعة . في مدة نشو الانسان . في الفرق بين التأديب وبين السياسة والفرق بين التربية على الادب وبين التأديب . في الادب وفي الحكمة الانسية في اعمال الرعونة ولواحقها . في المتأدب والاديب والغرض من الادب والادب الذي يربى به الصبيان وهم لا يعقلون وهو الادب الذي ينبغي ان يؤخذوا به وهم يعقلون او غيره . في ان الاديب هو الحر ومن ليس باديب فانه عبد . في عدم الادب واصناف التربية على الادب والتأديب . والقول في تربية الصبيان على الادب بالنوع الخداع قال فيه : قد قلنا ان ابتداء التربية على الادب انما تكون من المخادعة وذلك بان يصور الجد في صورة الهزل وان ينفق الصدق في صيغة الكذب . قال افلاطن وذلك بان يصاغ لهم الغاز يكون حشوها الادب وظاهرها الكذب . قال ومن جنس الالغاز الاشعار التي تمدح الفضيلة والعفة لا المجون واللذة . قال وينبغي ان يؤخذ الامهات والحواضن بان يحرفوهم بها ولا يحرفونهم بغيرها قال وينبغي ان تكون العناية بتسوية انفسهم بالالغاز اشد من العناية بتسوية ابدانهم بالقُمُط . قال وكذلك نقول بان الابتداء انما هو من الموسيقي الكاذب قال : واما اللعب فينبغي ان يجعل فيما يثمر الجد كاللعب بالكرة والثقافة .

وعقد فصولاً في تربية الصبيان على الادب بالنوع الجدي وفي اكتسابهم الحياء وفي

ان الامور بمباديها وان المبدأ أعظم شيء يكون في الامر وفي مبدإ التأديب وكيف يؤدب والقول في اللذات المحمودة وفي اللذات الذميمة وتعويد الصبر والحلم وتعويد حسن الطاعة للرؤساء وللسنن وكل هذه الفصول ايضاً منقولة عن افلاطن في كتاب السياسة . ومن فصوله المسكر وشربه وشرب الصبيان والقول في الولاة والقضاة وهل ينبغي لهم ان يشربوا وهناك نقل اقوال افلاطن ولم يتعرض لماقاله الدينيون . ومن فصوله ادب النوم وما يجب ان يفرض على الاولاد للوالدين وحق الداية والحاضنة وفيما يجب ان يأخذ الملك الناس به في الامر الاكابر والسادة في الآداب التي يحتاج اليها المرؤوس اذا صحب الرئيس . وفي هذا الفصل ترك النقل عن افلاطن وتشبث بابن المقفع فنقل عنه ثلاث صفحات وعاد في الفصل التالي وهو في صفة من يجب ان يخرج في الحكمة بنقل عن افلاطن وكذلك فعل في فصول ادب التعلم وكيف ينبغي ان يعلموا وفي اي سن يجب ان يكون المتعلم وفي العلم الاول الذي ينبغي ان يؤخذوا بتعلمه وهو علم العدد والعلم الثاني المساحة ثم المكعبات فالنجوم فالموسيقي فعلم الجدل فالمنطق ونقل ماقاله افلاطن في الفرق بين صناعة المنطق وسائر الصناعات وقال في سياسة النساء وان طبعهن في العلوم والصنائع لاينقص عن طبع الرجال ولكنه يكون اضعف واستشهد بافلاطن في ذلك .

ومن عناوين الابواب في هذا الجزء « هيولى الرأي » « الحض على الاستشارة والتحذير من الاستبداد وفيه بيان الحاجة الى الوزير » وفصول في الاستشارة من الشريعة السمحة وصفات السائس والفرق بين الظان والعالم وبيان ان الرئيس اذا لم يكن فاضلاً ذاته لاينفع ويضر مع ذلك المضرة العظيمة من قبل انه يفسد الرعية . وما الى هذا المعنى مما نقله عن أفلاطن حتى وصل الى القول في كيفية الاسعاد والى العدل العامي وهو الذي لايستغني عنه كل احد . وفصل مطول في الوصايا الجامعة . وجاء في آخرها قال ابو الحسن : الحمد لله الذي ألذّ بالمحبوب وأمتع به مرغماً فيه وأوحش بالمكروه وأمضّ به زاجراً عنه الى ان قال : وبعد فان كتابنا هذا انما هو في القسم الرابع من كتابنا في السعادة والاسعاد في السير الانسانية ونريد ان نبين فيه أقسام الرياسات وعلل الفاسدة منها نذكر فيه ايضاً أصناف المدن وصورها وأحوال أهلها وبالله نستعين في كل امورنا واياه نستهدي اهـ .

و بهذا عرفنا ان كتاب السعادة والاسعاد يدخل في اربعة أجزاء وربما زاد على ذلك وبدأ هذا الجزء الرابع باقسام الرياسات اخذ اكثرها عن أفلاطن ثم ذكر السبب المولد للفساد وكيف يحدث الفساد واستوفى القول في صفة المتغلب وذكر بعدُ أقسام المدن فقسمها الى المدينة الفاضلة والمدينة الخسيسة والحكيمة والجاهلية وتكلم عن صفة المدينة الشقية والسعيدة عن افلاطن وذكر صفة افلاطن لأخلاق اهل زمانه قال : « وحال ما نعلمه من أخلاق اهل المدن اليوم كحال لوح مملوء كتابة فاسدة فالواجب ان يغسل غسلاً جيداً ثم يملأ كتابة جيدة وان ذلك غير ممكن الا بان نقتلهم وهم أحياء ثم نجعلهم أذكياء بان نعودهم العادات التي يرضاها الله » .

وهنا تبين معنا اسم المؤلف (ص ٣٤٩) فقد قال : قال ابوالحسن بن ابي ذر : الحمد لله الذي نظم بحسن التقدير بين المساعي . الى ان قال وبعد فان كتابنا هذا انما هو في القسم الخامس من كتابنا السعادة والاسعاد في السيرة الانسانية ونريد ان نتبين فيه ما يجب على الرئيس ان يأخذ به نفسه في السياسة لرعيته و بالله نستعيذ من الزيغ والزلل الخ .

وبدأ هذا الجزء باقسام السياسة على وجه آخر سوى الوجوه التي ذكرها من قبل و باي السياسات ينبغي ان يكون الابتداء بسياسة السلم او الحرب قال أفلاطن : الابتداء بسياسة السلم اولى و يشبه ان يكون ذلك كالشيء اللازم وكالامر الضروري اذ كان لا سبيل الى دفع شر الاعداء الا باجتماع كلمة الاولياء . قال ولذلك نقول بان الواجب على السائس ان يصرف تدبيره اولاً الى استصلاح حال اهل المدينة فيما بينهم من الشرور التي تتولد فيهم بالبغضاء والتباين والحسد والتنافر قال وبعدُ فانه ليس يجوز ان تحصل لهم الخيرات مالم يقع الامن لبعضهم من بعض . قال والحرب حربان حرب فيما بين الاولياء بعض من بعض وحرب فيما بينهم وبين اعدائهم وشر الحربين ما تكون بين الاولياء فلذلك نقول بانه يجب ان يكون ابتداء عناية السائس اكتساب حسن الحال للاولياء اه .

ومن الفصول هنا الآداب التي يحتاج الملك والسائس ان يأخذ بها نفسه وأدب الملوك والرعية نقلها عن فلاسفة اليونان والفرس والعرب استشهد فيه بقول معاوية ما بين ان يملك الملك رعيته او تملكه الا الحزم او التواني فقال : هذا من حقه ان يكتب بماء

الذهب ٠ » وتكلم بعد على قوانين كبيرة في الوفاء بالعهد والعقد والحزم وعلى ان العقوبة والإهانة ضرور يتان في السياسة نقل ذلك عن افلاطن وارسطوطياس و بحث عما قاله افلاطن بانه ليس ينبغي للاديب ان يخاطب من لا ادب له ٠ وذكر الفصل بين عقوبة الاولياء المخالفين وبين عقوبة الاعداء المنابذين وفي الجنايات التي لايجوز احتمالها والجنايات التي لانطيق السنة احتمالها والتجاوز عن عقوبتها وبيان قوام السياسة بالاحسان وان أشرف الآلات الرفق وذكر ماجاء من الترغيب في الرفق والاحسان وتفصيل وجوه الاحسان وذكر الاسباب التي تتولد منها الآفات المفسدة للسياسة المؤدية الى خراب العمران والى فقر الرعية ونقل عن كتاب خداي نامة وكان نقل عنه كثيراً بعد اقتباس مايقتبس من فلاسفة يونان ٠ وقال في سياسة دفع مضرة الاعداء عن الاولياء : الواجب على السائس في كل سياسة ان يعمل على ماتوجبه الحال في الوقت والاحوال الدائرة فيما بين الاولياء والاعداء وان كانت كثيرة فانها تنحصر في قسمين احدهما الذي يوجب المدافعة والآخر الذي يوجب المناجزة ٠ ورأس الامر تقدمة الروية وملاكه العمل بالحيلة وقوامه في التأني ورفض العجلة وعلى انه لا بد من العدد ومن العدة وتمام الامر بكتمان ماتريد ان تعمله حتى لايقف عليه عدوك وحسن التلطف في استخراج ما يريد ان يعمله من يناوئك ٠

وذكر فصلاً في الحض على كتمان الرأي والاسباب التي بها تمكن المدافعة وذكر الاسباب التي بها يطمع في الغلبة عند المناجزة وذكر الرياسات التي بها ينتظم امر العسكر ، وعمل صاحب الشرطة او قائد الطليعة ، وامر الطلائع والعيون ، وعمل صاحب السياقة ، وعمل صاحب العلافة ، وعمل والي سوق العسكر واتبع ذلك بوصايا اكثرها مقتبس من افلاطن واشار الى المدة التي يجب بها رد العسكر الى اوطانهم وهي ثلاث سنين ولا ينقلهم حتى يصل اليهم من يخلفهم وذلك عن افلاطن ايضاً ٠

وفي (ص٤١٦) حمد الله وقدم مقدمته على عادته الى ان قال وبعد فان كتابنا هذا انما هو في القسم السادس من كتابنا الذي سميناه السعادة والاسعاد في السيرة الانسانية ونريد ان نذكر فيه السبيل الى تزكية النفس واحيائها من مبدإ مفتتحها الى تمام غايتها ٠ وبدأ ذلك عن اليناوس فيما يجب ان يأخذ به الملك نفسه ورعيته في معرفة الله ٠ ثم نقل

من كتاب الكون بتفسير الاسكندر نقله عن ارسطو ومن فصوله الحض على اقتناء من يستشار وفي التحذير من الهوى ومن مزيد الهوى ووجه العمل والرأي في الوزير اذا اخطأ وفي كيف يستشير فقال : في التاج (ونقل عنه غير مرة ولعله تاج الجاحظ) ولا ينبغي للملك ان يستشير احداً الا خالياً به فانه اموت للسر واجمع للذهن واحزم للرأي وقال ارسطوطيلس للاسكندر صيّر استشارتك بالليل فان الفكر فيه أحلى وأجمع وقال ابن المقفع اذا اجتمع امران فقدم الأهم واذا ورد امر وانت في آخر فدعه ولا تقطع الاول حتى تستتمه الا ان تخاف دخول ضرر بالتأخير في الامر الثاني وقال ابن المقفع و يجب ان تحذر المشاجرة في الوقت الضيق وقال ابن المقفع اذا طلب منك رأي فانظر الرجل المستشير فاذا عرفت اشترك بما يصلح له وفي خداي نامه ينبغي ان تعود نفسك الصبر على خلاف ذي الرأي والنصيحة اه ·

ووضع فصولاً في كيف ينبغي ان يعامل الملك وزراءه وفي الاستشارة على معنى التألف وفي الابتداء بالمشورة وفي ان الوزير والمستشار يجب ان يكون اكثر من واحد وفي الاسباب التي ينبغي ان يرتأي فيها و يستشار نقلاً عن اليونانيين والفارسيين وعنون لفصول في انه لا بد للملك من الأعوان وفي الحض على اختيار العمال وصفاتهم وتفقد امورهم وأحوالهم وفي الادب والآفة المؤدية الى سوئه وهذا آخر ما بقي من اوراق هذا السفر ولعله اكثر من ستة اجزاء كما علمنا ذلك بنص المؤلف ·

محمد كرد علي

مطبوعات حديثة

شخصية النبي محمد

The Personality of Muhammad the prophet.

رسالة لطيفة تشتمل على خطبة خطبها بالانكليزية الاستاذ (أ . يوسف علي الهندي) بعيد الاضحى في لندن .

عرض الخطيب الى سيرة النبي عليه السلام منذ مولده الى وفاته على سبيل الاجمال . وأشار الى الظواهر الخطيرة والحوادث الهامة التي تتعلق بشخصيته ونص على ما اتصف به ودعا اليه من مكارم الأخلاق ، وما شرعه من معالي الامور في شؤون الدين والدنيا . وكيف كان يرمي من وراء دعوته الى المؤاخاة بين البشر ليقودهم الى السعادة في الدنيا والآخرة . فحبذا لو أقبل المسلمون على دراسة حياة نبيهم وما فيها من الجلائل والعظائم والعبر والعظات لحياته حياة لهم

عضو المجمع العلمي
خليل مردم بك

متاجر فرنسا في سورية وفلسطين

«في القرن الثامن عشر»

تأليف شارل رو الوزير المفوض . وهو بالفرنسية يقع في ٢١٧ صفحة من القطع الكبير ويحتوي على ٢٧ صورة قديمة

كان الفرنسيون وبعض الامم الاوربية يتجرون مع الشام في القرن الثامن عشر وما قبله على شكل خاص فتقيم جالياتهم في فرض معينة كبيروت وصيدا وطرابلس وعكا و يافا ويتمتعون بامتيازات رضي فيها السلاطين العثمانيون ان يتنازلوا عن حقوق الدولة حباً بضمانة الاتجار بين الشرق والغرب وهي تلك الامتيازات التي كانت في ذاك الحين محمودة المغبة فصارت في ايامنا هذه شؤماً على اهل البلاد وضرراً كبيراً . وكان تجار كل دولة اوربية من الدول الكبرى يعيشون مع قنصلهم عيشة خاصة في خانات معلومة

لا يخرجون منها ليلاً · ولهم قوانين سنتها لهم دولهم تتناول كثيراً من الشؤون حتى شؤونهم الخاصة كمنعهم عن الزواج ومنع نسائهم وبناتهم من اللحاق بهم واطلاق يد القنصل في طردهم واعادتهم الى بلادهم اذا اتوا اعمالاً سيئة الخ · ولم يكن يسمح لغيرهم من ابناء جلدتهم ان يتجروا مع الشرقيين · وبعض الدول كانت تحدد الاصناف والمقادير التي يمكنهم ان يتجروا بها حتى كأنهم موظفون لديها · وكانت الغرفة التجارية في مرسيلية تسيطر على كل التجار الفرنسيين في المرافئ الشامية ·

ولقد اجاد المؤلف في وصف علاقات التجار الاجانب بالاهلين و بالحكام وتأثير هؤلاء (كالشيخ ظاهر العمر والامير يوسف الشهابي والجزار وابي الذهب) في تجارة البلاد وزراعتها · ودعم آراءه بوثائق مهمة استخرجها من وزارة الخارجية الفرنسية والغرفة الزراعية في مرسيلية وحلى الكتاب بصور كثير من رجال ذلك العصر صورت في ذاك الزمن فهذا الكتاب هو اذن من الكتب المفيدة جداً يلزم لكل من يدرس تاريخ الشام في القرن السابع عشر لاسيما من وجهته الاقتصادية ·

مصطفى الشهابي
عضو المجمع العلمي



ذيل وذيل الذيل
« لكتاب الصكوك الحقوقية »

تأليف شيخ المدققين الاستاذ محمد مصباح محرم وقد وصفنا هذا الكتاب الممتع في عدد سابق من المجلة · وهذا الذيل تتمة قيمة يحتاج اليها ايضاً رجال القانون والشرع من قضاة ومحامين ·

عارف النكدي